الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

جامعة عبد الرحمان ميرة-بجاية

كلية الآداب و اللغات

قسم اللغة والأدب العربي

# الآخر في الرواية الجزائرية

## " ابن الشعب العتيق " لـ" أنور بن مالك "

## أنموذجا

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

**تخصص :أدب جزائري**

**إعداد الطالبتين :**

**سميرة لحلوح**

**كاتية مالا**

**إشراف الأستاذة :**

**سعاد أوشايت**

**السنة الجامعية:2012/ 2013**

# بسم الله الرحمن الرحيم

## قال "عماد الأصفهاني"

**"إنّي رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر... "**

# شكر

**يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :**

**" لا يشكر الله من لا يشكر الناس"**

من منطلق هذا الحديث نحمد الله تبارك وتعالى ونثني عليه كما يحبه ويرضاه، على أن وفقنا في إنجاز هذا العمل.

نتقدم بالشكر الخاص إلى الأستاذة " سُعاد أُوشايت " التي منت علينا بمساعدتها وتوجيهاتها القيمة ومعلوماتها النيرة، وإلى الأستاذ "لونيس بن علي " الذي لم يبخل بتقديم العون لنا.

إلى كل من ساعدنا على إتمام هذا العمل المتواضع، ولو بالكلمة الطيبة والابتسامة الصادقة.

# إهداء

إلى كل من أحب...

سميرة

# إهداء

إلى روحي...

كاتية

# مقدمة

تعد دراسة صورة الآخر الأجنبي / الصورولوجيا Imagologie فرعا من فروع الدراسات المقارنة، الذي شهد ازدهارا ملحوظا في الآونة الأخيرة، بسبب تلك الرغبة في تحقيق التفاهم والتسامح بين الأمم، عبر دراسة مختلف الصور المقدمة في الآداب القومية عن الشعوب الأخرى، سواء أكانت هذه الصورة إيجابية تساعد في نشر هذا التسامح، أو نمطية تسيء إلى الآخر.

لطالما كان الآخر محور البحث بالنسبة للأنا، إذ بواسطته تستطيع أن تفرض وجودها وتبرز أحقيتها في التميز عنه، ومن ثمة تدرك نفسها إدراكا جيدا، لهذا نجدها دائمة السعي وراء معرفة آخرها، لأن معرفة الآخر هي في الحقيقة معرفة للأنا.

ومن هنا كان اهتمامنا بدراسة صورة الآخر الأجنبي في الأدب الجزائري، وكانت رواية "ابن الشعب العتيق" لـ"أنور بن مالك" مدوّنتنا المختارة. إنّ الرغبة في التعرف على هذا النوع من الدراسات المقارنة، الذي يكتسي أهميته الكبرى في الوقت الراهن، والبحث في مفاهيم جديدة لم نتعرف عليها من قبل، وكذا الابتعاد عن المواضيع المعتاد تناولها في البحوث عادة، إضافة إلى رغبتنا في التعرف على الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية ... هي كلّ الأسباب التي دفعتنا إلى اختيار موضوع بحثنا هذا.

اتبعنا في هذا البحث المنهج التحليلي المقارن، الذي حاولنا من خلاله تحليل صورة الآخر في الرواية.

لقد قسمنا بحثنا هذا إلى فصلين واحد نظري وآخر تطبيقي، بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة. تطرقنا في الفصل الأول إلى تحديد مجموعة من المفاهيم والمصطلحات من مثل الصورة، والآخر، والصورة النمطية، والصورة الأدبية والصورولوجيا، كما تناولنا أيضا الآخر في الوطن العربي ثم جدلية الأنا والآخر. أما في الفصل الثاني فقد حرصنا على تطبيق ما تناولناه في الفصل الأول على مدونتنا، فقد قمنا بتحديد أوجه ظهور الآخر، ثم تمثيلات صورة الآخر، ثم حاولنا دراسة أهم الشخصيات الممثلة للأنا والآخر، والعلاقة بين الأنا والآخر، ثم وقفنا عند تجليات الصورة النمطية، ثم ختمنا بحثنا بذكر ما توصلنا إليه من نتائج.

وإذا ما عرجنا إلى ذكر الصعوبات التي واجهناها أثناء هذا البحث، فإننا نجد أن قلة المراجع كانت المشكلة الأساسية التي عرقلت إمكانية توسيعنا للبحث، إضافة إلى حجم الرواية الذي أشعرنا بالخوف والقلق من عدم التمكن من إتمام قراءتها، وفهم أبعادها، ذلك أننا لم نهتدِ إليها إلا بعد أن أتعبنا البحث عن رواية تكون أنموذجا مناسبا لدراسة صورة الآخر.

وفي الأخير نأمل أن ينال هذا الجهد المتواضع القبول والاستحسان، – وإن قليلا– للمطلعين عليه، ويكون إضافة صغيرة إلى مجال دراسات محتاج إلى التعميق، ونسأل مولانا وخالقنا أن يسدد قصدنا

# الفصل الأول

## ضبط المفاهيم

**أوّلا / مفهوم الصورة:**

"تصورت الشيء، توهمت صورته، فتصور لي".[1]

إن الصورة هي تعبير أدبي، من بين التعابير الدلالية التي تعبر عن ذلك البعد الدلالي بين ثقافتين أومجتمعين مختلفين من الواقع، وهي تنشأ بين الأنا مقابل الآخر، وبـ"هنا" مقابل مكان آخر، ويمكن القول أيضا أنها تلك الصورة الذهنية التي يكونها شخص، أو مجموعة أشخاص، أو مجتمع عن ثقافة ما متباينة عنه، يستطيع من خلالها كشف وترجمة ثقافة بلده أو المكان الذي ينتمي إليه.

فالصورة هي ترجمة للواقع الذي تعكسه، باعتبار أنها لغة عن الآخر تصوره وتشكل مواصفاته، ولكن السؤال المطروح هو في مدى صحة الصورة المشكلة عن ثقافة ما، وليس بالضرورة أن تنقل الواقع كما هو، لأن دراسة الصورة لا ينبغي أن تكون شديدة الاهتمام بالواقع، فالكاتب عندما يشكل صورته عن الآخر لا يعتمد تماما على صياغة الأمور الواقعية، بل إنه يستنتج ذلك من خلال تلك المواصفات أو العناصر التي يرى أنها مناسبة لتقديمه[2].

---

[1]– أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور، لسان اللسان (تهذيب لسان العرب)، دار الكتب العلية، ط1، بيروت – لبنان، الجزء الثاني، 1993، ص 45.

[2]– ينظر :الوجيز في الأدب المقارن، تأليف عدد من المقارنين الفرنسيين بإشراف بيار برونيل وإيف شيفريل، تر: غسان بديع السيد، ص 146–149.

وبما أن الصورة لغة إلى حد ما، لأن الذات تعبر عن الآخر من خلالها، فإن "**الاهتمام بالذات وبالآخر هو اهتمام يسكن كل تصور، أو جسد أو لغة. فالآخر، كيفما تقدم إلينا، يترجم ذاته من خلال اللغة والجسد**"[1].

**ثانيا/مفهوم مصطلح " الآخر":**

بمعنى غير، والفرق بينهما أن هذه تختص بجنس ما تقدمها، أما غير فتختلف، مؤنثها أخرى، ج أُخَرٌ[2].

إن لفظة " الآخر " قديمة قدم وعي الإنسان باختلافه عن غيره، ولقد طرأت عليها عدة تغيرات؛ إذ انتقلت من كونها لفظة إلى مصطلح في العلوم الإنسانية تعددت معانيه ودلالاته، بحيث أصبح مفهومه متداخلا مع مفهوم الذات التي لا تحقق وجودها إلا بوجود الآخر، فإذا تعمقنا في توضيح مفهوم الآخر، وجدنا أنه من الصعب تحديده دون التعرض إلى مفهوم مصطلح" الأنا "، لأنهما متداخلان ومتلازمان لا يمكن وجود أحدهما دون الآخر[3].

---

[1]– محمد نور الدين أفاية، الغرب في المتخيل العربي، منشورات دائرة الثقافة والإعلام، ط1، الشارقة، 1996، ص 11.

[2]– خليل الجر، المعجم العربي الحديث "لاروس"، مكتبة لاروس، 1973، ص2.

[3]– ينظر : محمد الخباز، صورة الآخر في شعر المتنبي (نقد ثقافي)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 2009، ص 21.

ومن هنا سنحاول أن نتوقف وقفة عابرة نتعرّض فيها إلى مفهوم الأنا الذي ورد في "معجم لالاند" على أنّها "**الميل إلى إرجاع كلّ شيء إلى الذّات**"[1]، مستشهدا في ذلك بمقولة الفيلسوف الفرنسي "باسكال" الذي يقول أنّ " **للأنا خاصيتان، فمن جهة هو في ذاته غير عادل من حيث أنّه يجعل من نفسه مركزاً لكلّ شيء، وهو من جهة أخرى مضايق للآخرين من حيث أنّه يريد استعبادهم، ذلك لأنّ كل "أنا" هو عدوّ، ويريد أن يكون المسيطر على الكلّ** "[2]، وبالاستناد إلى هذا المفهوم المقدّم للأنا ندرك إدراكا تاما أنّه مفهوم جائر وظالم يقوم على حبّ التسلّط و التملّك لأنّ الأنا تعتبر نفسها مركز القوّة بالمقارنة مع من تتعامل معه، وهي بهذا تمثّل العدو القويّ الذي يسعى دوما إلى السيطرة على الآخر، وبالتالي فإنّ مفهومها غير منصف تماما في حق من تتعامل معه[3].

وعموما فقد سجل الآخر حضورا قويا لا يمكن تجاهله في مجمل الأجناس الأدبية (الرواية، المسرح، الشعر...)، إذ نجده بأشكال مختلفة ومتنوعة، فأحيانا نلمح انجذابا نحوه، وأحيانا أخرى نلمح نفورا منه حسب الحالة التي يرد فيها. إن الآخر هو كل ما يختلف عن الذات، فهو مفهوم غامض يختلف باختلاف الذات التي تحدده، إذ أن الآخر بالنسبة لشخص

---

[1]- محمد عابد الجابري، الإسلام والغرب (الأنا والآخر)، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، بيروت، 2009، ص 22

[2]- نفس المرجع، ص 22.

[3]- ينظر : محمد الخباز، صورة الآخر في شعر المتنبي، ص 23.

ما ليس بالضرورة آخرا بالنسبة للشخص الثاني[1]، فمثلا قد يكون الشعب الفرنسي آخرا بالنسبة للشعب الجزائري، غير أنه قد لا يعتبر كذلك بالنسبة لبلد ثان. "**إن أي واحد مختلف دينيا أو عرقيا أو ثقافيا يمكن أن يكون الآخر، بل هو في الواقع آخر بكل ما يعنيه الاصطلاح، وبالتالي يمكنه أن يؤثر ويفعل ويلعب دورا فيمكنه أن يكون صديقا أو عدوا، مناقضا أو مماثلا، قابلا للنفي والقبول، جنة أو جحيما، قال سارتر: " إن الجحيم هو الآخر** "[2].

إن تحديد الآخر على مستوى المجتمعات يتبين من خلال الاختلاف الديني (الإسلامي– المسيحي)، أو العرقي (الأبيض – الأسود)، أو الجنسي (المرأة – الرجل)، أو في الشرق مقابل الغرب أو العكس ...ومن هنا يمكن القول بأن المستويات المحددة للآخر قد تكون دينية أو ثقافية أو عرقية، ولكن الأمر الذي لا يمكن الاختلاف فيه هو أنه لا وجود للآخر بدون الأنا، وأينما وجدت الذات وجد الآخر، وبهذا المعنى يكون الآخر آخرا بالنسبة لموقع من يتعامل معه ويصنفه.

---

[1]– ينظر : محمد الخباز، صورة الآخر في شعر المتنبي، ص 23.

[2]– ينظر : حسين العودات، الآخر في الثقافة العربية (من القرن السادس حتى مطلع القرن العشرين)، ط1، بيروت – لندن، 2010، ص 20 – 21.

**ثالثا / صورة الآخر:**

بما أن الإنسان لا يعيش مستقلا بذاته فهو من دون شك بحاجة ماسة إلا إنشاء علاقات مع غيره تشعره بالسكينة و الهدوء، وتسهل عليه مرارة العيش وحيدا منعزلا عمن يحيط به، وتختلف هاته العلاقات باختلاف المشاعر التي يكنها الإنسان للآخر، فأحيانا يربطه بالشخص الآخر حب فينجذب نحوه، وأحيانا أخرى يربطه به كره فينفر منه لأسباب مختلفة غالبا ما تستدعي البحث فيها وتعليل نشوئها[1].

إن علاقة الأنا بالآخر تتحدد من خلال تلك الصور التي تشكلها الأنا باستنادها على مجموعة من التصورات والانطباعات التي أثرت في نفسها سلبا أو إيجابا، وهذا ما يؤدي إلى خلق سلسلة من الروابط بين هذين الطرفين ( الأنا والآخر) وقد تتمثل في الصداقة أو العداوة، التقدم أو التخلف... وغيرها، بحيث تصبح هذه الروابط معيارا يحدد القرب أو البعد بينهما[2].

---

[1]- ينظر : ميلاد حنا، قبول الآخر، فكر واقتناع وممارسة، دار الشروق القاهرة، ط1، 1998، ص 90.

[2]- ينظر :غسان السيد ، "صورة الغرب في الأدب العربي، رواية ( فياض) لخيري الذهبي نموذجا"، مجلّة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 24، ع 3-4، دمشق، 2008،ص88.

ترى الدكتورة " نهوند القادري" **أن صورة الآخر هي تعبير أو تعابير ذات دلالات معينة ومقصودة، نرسم بواسطتها صفات فرد أو شعب أو مجموعة شعوب، بحيث تترك انطباعا سلبيا أو إيجابيا لدى القارئ أو متلقي هذه التعابير"**[1].

غالبا ما تنظر الأنا إلى الآخر لتنقل صورة عنه، لكنها في الحقيقة لا تنقل صورته فقط، وإنما تنقل صورتها الذاتية أيضا، كما أن التعبير عن الآخر أو الصورة المقدمة عنه كثيرا ما تكون نفيا له، سواء أكانت هذه الصورة مقدمة على المستوى الفردي من قبل الكاتب أو على المستوى الجماعي من قبل الأمة، إذ تدرس هذه الصورة وفقا لأحكام مسبقة وأفكار نؤمن بها، فتصبح تعبيرا عن الذات وعن الآخر كما تراه أو بالأصح كما تريد أن تراه، وليس كما هو في الواقع، بعيدا عن الأوهام التي تنتج نظرة متعصبة تؤدي إلى سوء الفهم بينهما.

وبما أن العلاقة بين الأنا والآخر هي علاقة متناولة حاليا في الكثير من النصوص الإبداعية وفي مختلف الأجناس الأدبية، فلا ريب أنه من المهم الإشارة إلى أن صورة الآخر ليست هي الآخر، وإنما هي نتاج مخيلة الكاتب وإبداعه، فالصورة ليست هي الواقع حتى

[1]– حسين العودات، الآخر في الثقافة العربية، ص 360.

وإن كان الجدال حولها من الواقع الراهن[1]،"**إن معرفة الغير في طريق التنفيذ، وستكون عند تحقيقها معرفة الإنسان نفسه**"[2].

من البديهي أن الصورة التي تقدمها الأنا عن الآخر تجسد أفكارا عن الآخر، تصفه وتعرفه وتكشفه فيها، ولكن ما يكون من الصعب أحيانا تصوره والاعتراف به، هو أن صورة الآخر يمكنها أن تعبر أيضا عن الذات، لأن الصورة تعبير عن الآخر وعن الذات في الآن نفسه، وكون الأنا تسعى لأن تعبر عن الآخر، فهي من دون شك تعبر عن نفسها وعن العالم الذي يحيط بها من خلال تعبيرها عن الآخر.[3]

يعرف الدكتور " أديب خضور" هذه الصورة بأنها "**مجموعة من الأحكام والتصورات والانطباعات القديمة المتوارثة والجديدة والمستحدثة الإيجابية منها والسلبية، التي يأخذها شعب(أو جماعة أو مجتمع عن آخر)، ويستخدمها منطلقا وأساسا لتقويمه لهذا الشخص، ولتحديد موقفه وسلوكه إزائه، والصورة الذهنية شديدة الصلة بالموقف ويؤثران معا على التفاعل**"[4].

---

[1]- ينظر : محمد الخبار، صورة الآخر في شعر المتنبي، ص 25- 26.

[2]- ريمون كاربانتييه، معرفة الغير، ت : نسيم نصر، منشورات عويدات، ط3، بيروت- باريس، 1984، ص 10.

[3]- ينظر :الوجيز في الأدب المقارن، ص 149- 150.

[4]- ينظر : حسين العودات، الآخر في الثقافة العربية، ص 24، عن أديب خضور، صورة العرب في الإعلان الغربي، دمشق، ص11.

إن صورة الآخر هي– في الواقع – تعبير عن خلفيات الأنا وآرائها تجاهه، وهي بهذا المفهوم صورة ترتبط ارتباطا قويا بالمواقف السلبية أو الإيجابية التي قد تنتجها الذات عن الآخر، ومن ثمة تصبح تلك الآراء والمواقف المتخذة عنه بمثابة العماد الذي تستند إليه الأنا في رسم علاقتها به وتحديد طريقة تعاملها معه، ومن هذا المنطلق يمكن إدراك نسبة التفاعل التي قد تنتج بينهما.

ويمكن القول أن الجهل بالآخر وعدم معرفته معرفة جيدة ناتجة عن طريق الاحتكاك به، هو من أهم الأسباب التي تولد التواتر بين الأمم وتؤدي إلى اتساع الهوة بينها، لأن الإدراك الصحيح للآخر والاتصال به هو الأمر الوحيد الذي يمكنه أن يقدم الآخر في صورة إيجابية غير بعيدة عن الواقع، وإلا فلن تكون هذه الصورة إلا تشويها له يصعب غالبا تصحيحها نحو تلك الصورة المشوهة المقدمة عن الإسلام من طرف الغرب[1].

وفي ذكر الصور المشوهة بين الأنا والآخر تجدر الإشارة إلى أن تلك المواقف السلبية بين الغربيين والإسلاميين ساهمت – بشكل جلي – في خلق مجموعة من التشويهات والمخاوف المتبادلة التي ما زالت قائمة بينهم حتى يومنا هذا، ومن غير المعقول أن يتخلصوا منها عبر ذلك العناد المعتمد في تعامل كل طرف منهما مع الآخر أو عبر

[1]– ينظر : سامي مسلم، صورة العرب في صحافة ألمانية الاتحادية، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة أطروحات الدكتوراه 8، ط2، بيروت، يونيو 1986، ص 18 – 19.

التناقض في إطلاق الأحكام بينهما، ولكن فقط من خلال اعتمادهم على الإدراك الأمثل للآخر والتواصل الحقيقي معه، وإلا فإن هذا لن يزيد إلا من العداوة والبغضاء بين الطرفين[1].

وفي هذا السياق سنحاول أن نتطرق بوضوح إلى تلك الصورة النمطية التي كونها الغرب عن الإسلام، لأنها في الحقيقة أساس الاختلاف بينهما بحكم أن الدين هو العامل الأساسي الذي جعل كل منهما مختلفا عن الآخر، إذ نجد أن الغرب لطالما كان – ولايزال – ينظر إلى الشرق نظرة الأعلى إلى الأدنى، ونعني هنا بالغرب (المخيلة المسيحية) وبالشرق (الإسلام)، لأن الغرب يعتبر الإسلام آخر مختلف تماما عنه، وعدوا له، الأمر الذي جعله يسعى وبأي شكل من الأشكال إلى الإساءة للإسلام وتشويه صورته عن طريق تقديمه أبشع الصور عنه.

من هذا المنطلق لنا أن نقف – وإن قليلا – عند أهم الصور النمطية التي نسجتها المخيلة المسيحية عن الإسلام، الذي تعتبره دينا منافسا لها، إذ نجد الغرب ينعت الديانة الإسلامية بالشرك والوثنية، ويعتبره دينا عنيفا وقاسيا شعاره السيف والحرب والقتال، أما العربي المسلم هو الرجل المحارب الشرس والمتوحش الذي يقوم بالقتل بكل عدوانية، وهو بهذه الصفات يكون الآخر النقيض بامتياز بالنسبة للمسيحي. إلا أن هذا لم يمنع المسيحيين في القرون الوسطى من التخطيط للحملات الصليبية التي سعت إلى إعادة الاعتبار للرسالة

[1]– ينظر : ثابت عيد، صورة الإسلام في التراث الغربي (دراسات ألمانية)، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، نوفمبر 1999، ص 36 – 50.

المسيحية بطرق جديدة لم يكن المسيحي متعودا عليها، وقد عملت هذه الحروب على تكثيف الصور النمطية المكونة عن الدين الإسلامي، من أنه دين العنف والقسوة والأكاذيب، فالغرب يرى أن الإسلام عقيدة تتسم بالكذب والانحلال الخلقي والتساهل مع الملذات والشهوات الجنسية، كما أنها ليست إلا عقيدة ملفقة ابتدعها رجل يدعى محمد لأنه إنسان مرتد ونبي مزيف ومخادع لا يملك سوى الادعاءات والأضاليل، بل إن الخيال المسيحي جعل من محمد ( ص ) ساحرا ومحاربا عنيفا معاديا للمسيح المسالم. وبهذا تكون هذه الصورة النمطية المقدمة من طرف الغرب تجاه الدين الإسلامي مجرد صور ادعائية سلبية واستخفافية تسعى إلى الإساءة والتجريح في نبوة محمد(ص) عن طريق تقديمها للإسلام في صورة شيطانية وللمسلم في صورة شرسة ولمحمد(ص) في صورة مشوهة من أجل الانتقاص من قيمته ونبوته، لأنهم يعتقدون أنها الطريقة المثلى للطعن في الدين الإسلامي وتحطيم بناءه. وهكذا استطاع الغرب أن يختزل صورة المسلم في كل ما هو سلبي، ويقدمه بسخرية تامة وبكل أشكال الانتقاصية، فاختلق الأكاذيب وأنتج الصور التي تصر على تقديم الآخر (الإسلام) بصورة سلبية ومشوهة تسيء إليه وإلى المسلمين عامة[1].

بما أن الصورة الذهنية تتصل اتصالا شديدا بالموقف، وتسهم إسهاما قويا في تحديد درجة التفاعل بين الأمم والشعوب والثقافات، وبما أن هذا التفاعل الإنساني دائم لا يتوقف،

---

[1]- ينظر : محمد عابد الجابري، الإسلام والغرب، ص 115 – 122 .

فإن الحاجة إلى اكتشاف الآخر تظل قائمة عبر الأجيال، ولكن السؤال الذي يقتضي الطرح هو كيف يتم اكتشاف هذا الآخر؟

إن عملية تكوين صورة الآخر هي عملية فردية أو جماعية تختلف فيها الجوانب التي قد تساعد في معرفة الآخر واكتشافه، إذ يمكن للأنا أن تعتمد في محاولتها لاكتشاف الآخر على الجانب المجتمعاتي بما فيه من عادات وتقاليد متوارثة وسلوكيات معتادة مختلفة بالمقارنة إليها، كما يمكنها أيضا أن تستند في ذلك على الجانب الأدبي وهذا من خلال النص الإبداعي الذي يعكس وبشدة ثقافة أي مجتمع ما، فهو مرآة عاكسة لقضايا هذا المجتمع وظواهره، وبالتالي فهو قادر على أن يكون تعبيرا عن الآخر من جهة، وممثلا لبعض الانطباعات عن الذات من جهة أخرى[1].

غالبا ما تكوّن الأنا صورها الذهنية تجاه من تعتبره آخرا بالنسبة لها في فترة زمنية معتبرة، سواء أكانت هذه الأنا شخصا أمام شخص غيره، أو مجتمعا أمام مجتمع غيره، وإن كانت هذه الصورة التي يقدمها الشخص عن آخره تتشكل في مدة زمنية قصيرة، فإن الصورة التي يقدمها المجتمع عن آخره تتشكل في مدة أطول بكثير عن سابقتها، لأنها باختصار بحاجة إلى التصحيح إذا ما كانت خاطئة، أو التعديل في حال ما إذا ما كانت مشوهة للآخر، نحو تلك الصورة المزيفة التي كوّنها الفرنسيون عن الشعب الألماني، والتي كانت

[1]– ينظر : محمد الخباز، صورة الآخر في شعر المتنبي، ص 24.

سببا من أسباب البعد بينهما، مما دفع " مدام دي ستال "[1]إلى تصحيحها وتعديلها بواسطة تعايشها مع هذا الآخر الألماني، ولكن ينبغي أن ننوه إلى أن هناك حالات لا يفيد فيها هذا التعديل شيئا، لأن تلك الصورة المشوهة للآخر تستدعي ومن دون شك تغييرها تماما[2].

إن رسم الأنا لصورة الآخر يختلف باختلاف أنواع تأثرها به ومدى تفاعلها معه، فإذا كان تأثرها به تاريخيا فإنه من دون شك سيتجلى من خلال رسمها للعلاقة التاريخية بينهما، وأما إذا كان ثقافيا فسيتجلى من خلال رسمها للعلاقة الثقافية بينهما، وأما إذا ما كان اجتماعيا فإنه سيظهر وبوضوح من خلال الأخذ بعين الاعتبار أهمية التجارب الفردية والرحلات الشخصية إلى المجتمعات المختلفة، وبالتالي فإن تفسير صورة الآخر حتما سيرتبط بهذه التأثيرات التي تبرز في ثنايا هذه الصورة، ومن ثمة فإن هذا التفسير هو من يحدد تلك الحالات المتنوعة لاستيعاب الآخر[3]،إذ يمكن للأنا أن تصف الآخر بالمتفوق والعقلاني،فتنظر إليه على أنه المفضل مقارنة بها لأنها لا ترى فيه إلا الجانب الإيجابي، أو أن تنسب إليه مجموعة من الصفات السلبية وتلصقها به، لأنها تسعى لأن تشكل صورة مشوهة عنه، كما يمكن للعلاقة بينهما أن تقوم على الأخذ والعطاء لأنها تسعى إلى تحقيق

---

[1]– سنشير إلى مساهمة " مدام دي ستايل "عندما سنتحدث عن الصورولوجيا.

[2]– ينظر :حسين العودات، الآخر في الثقافة العربية، ص 24.

[3]– ينظر : ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، منشورات الاختلاف، ط1، 2010، ص 27.

المساواة والتسامح بينهما[1]، "**فترسم صورة الآخر بروح موضوعية، يسودها التسامح، لذلك لن تنحرف أو تبالغ في تعاملها مع الذات أو الآخر**"[2].

وبما أن صورة الآخر تنبثق من الذات التي تتعالى على الآخر من خلال تعزيز نفسها والرفع من قيمتها، فإن الصورة التي تقدمها عنه حتما ستكون سلبية ودونية يطغى عليها التشويه الذي يوسع الهوة بين الأمم، ليحل التواتر محل التواصل الإنساني الذي تسعى إليه الدراسات الصورية الحديثة[3]. فالتواصل الإنساني بين الأمم والشعوب هو أساس العلاقة بين المجتمعات، لأن انعدامه وانعدام الحوار يؤدي إلى عدم معرفة الغير، مما يجعلنا نطلق أحكاما سلبية عن الآخر بسبب جهلنا له، ثم إن معرفة الآخر هو أمر مهم لتحديده والاعتراف به، بل إن الإسلام نفسه قد نادى بمبدأ التعارف كأساس بين الناس، والدليل على ذلك قوله تعالى :﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا**﴾[4] .

---

[1]- ينظر : غسان السيد، صورة الغرب في الأدب العربي، ص92-95.

[2]- ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، ص 28.

[3]- ينظر : المرجع نفسه، ص 87.

[4]- سورة الحجرات، الآية 13.

**رابعا / الصورة النمطية (النمط):**

هو الصنف أو النوع أو الطراز من الشيء، ج أنماط ونماط[1].

"**يعد النمط شكلا أوليا للصورة أشبه بخطوط مشوهة لها، تتجلى من خلال كذب النمط أو تأثيراته المؤذية على المستوى الثقافي إذ تبتعد الصورة عن التجدد، وتبدو أقرب إلى الآلية والجمود**"[2]، إن النمط، تبعا لهذا الكلام، يسيء إلى الصورة، فيبتعد عن الصورة الحقيقية ليفسح المجال للصورة المشوهة التي يصعب تغييرها لأنها قابلة للاستخدام على مر الزمان.

فالصورة النمطية هي الصورة التي يأخذها شخص (الأنا) عن غيره من الأشخاص، أو عن مجتمع من المجتمعات، أو دولة من الدول بتوارثها وتناقلها عبر الأجيال أو بالاستناد على تجربة واحدة أو تجارب قليلة ثم تعمم بعد ذلك، إذ يكون لهذه الصورة سواء أكانت إيجابية أو سلبية تأثير كبير في تشكيل فكرة عامة عن هذا الآخر، فتعتمد عليها (الأنا) كأساس في تعامله مع هذا الشخص أو ذاك المجتمع أو تلك الدولة.

يعدّ نقص الاتصال بالآخر و عدم الاعتراف بوجوده من أهم العوامل التي تؤدي إلى تكوين مختلف الصور النمطية عنه، إما على المستوى الثقافي (تفوق، تخلف)، أو على

---

[1]- خليل الجر، المعجم العربي الحديث "لاروس"، ص 1226.

[2]- ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، ص 26.

المستوى العرقي (جنس أسود، جنس أصفر)، أو على المستوى الديني (إسلامية، مسيحية)، أو غيرها من المستويات..

**خامسا / الصورة الأدبية:**

إن الصورة الأدبية هي تلك الصورة التي ينظر إليها على أنها مجموعة من الأفكار التي يستنتجها الأديب أو الدارس عن الآخر من خلال التواصل الاجتماعي بين الأمم على اختلاف دياناتها، ثقافاتها، أفكارها وحضاراتها ، فهي تسعى لأن تكون كاشفة وقادرة على أن تصوره لنا عبرها[1].

إن "**الصورة التي يرسمها أديب ما لمجتمع أجنبي ما، لا تعبر عن مشكلات ذلك المجتمع وهمومه وقضاياه، ولا تنبع من التزام الأديب حيال المجتمع الأجنبي ومن رغبته في إصلاحه أو تغييره نحو الأفضل، وهي ليست وليدة توحد الأديب مع ذلك المجتمع الذي لا يرتبط به قوميا، فالصورة التي يرسمها الأديب لمجتمع أجنبي تنبع أولا وقبل كل شيء آخر من مشكلات الأديب نفسه ومشكلات قومه في مواجهة الآخر، لذلك تلبي الصورة الأدبية في الدرجة الأولى حاجات نفسه**"[2]،فغالبا ما تتجلى الحالة النفسية للأديب في تصويره

---

[1]- ينظر : الوجيز في الأدب المقارن، ص 146- 147.

[2]- ماجدة حمود، صورة العرب في التراث العربي، ص 16- 17.

للمجتمع الأجنبي، إذ أن الصورة التي يقدمها عن هذا الأخير نابعة من معاناته ومعاناة مجتمعه في التعامل مع الآخر.

إن دراسة الصورة الأدبية للآخر تنفي أن تكون الذات منغلقة على نفسها، لأن انفتاحها على الآخر ورغبتها في التعرف عليه يساعدها وبأي شكل من الأشكال على التعرف على ثقافات متنوعة تختلف عن ثقافتها، بل إنه يجعلها أكثر إدراكا لسلبياتها إذا ما كان هذا الآخر متفوقا عنها، أو لإيجابياتها إذا ما كان متخلفا عنها، كما قد تساعدها أيضا في التعبير عن مشاعرها المكبوتة تجاهه و انفعالاتها به، وبما أنّ الصورة الأدبية هي مجموعة من الأفكار التي تصف الآخر وتشكل صورة عنه، فلابد لها أن تصحّح في حال ما إذا قدّمته في صورة سلبية مشوهة، فهي تنبذ أن ينسب للآخر ما ليس له أو أن يوصف بأسوء الصفات فقط لكونه آخرا عن الذات التي تكوّن صورته، باختصار يمكن القول بأن الصورة الأدبية تسعى إلى أن تعطي لكل ذي حق حقه ليزول بذلك سوء الفهم بين الشعوب و يسود التواصل المستمر بينها[1].

[1]– ينظر : ماجدة حمود، صورة العرب في التراث العربي، ص 173.

**سادسا / الصورولوجيا:**

تعد الصورولوجيا أحد فروع الأدب المقارن، وهي علم دراسة الصورة الأدبية فهي تبحث في تلك الصورة التي يكونها الشخص عن غيره، فالصورولوجيا هي دراسة الآخر في أثر أو أدب ما، تعود بداياته إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر عند صدور كتاب "ألمانيا *De L'Allemagne*" **أول كتاب "مدام دوستال"، وفيه ألقت بكل ثقلها وبنت شخصيتها تماما، وقدمت لمواطنيها عالما جديدا عليهم تماما** "[1]. يحمل "من ألمانيا" في طياته تجربة صاحبته أثناء رحلتها إلى ألمانيا أين اكتشفت صورة جديدة عن هذا الشعب غير تلك الصورة السلبية التي انتسبت إليه من طرف الشعب الفرنسي، فبفضل احتكاكها بالشعب الألماني تمكنت من إزالة سوء الفهم بين الشعبين وذلك بإعطاء صورة صحيحة موضوعية لهذا الآخر.

ولهذا بإمكاننا أن نعتبر هذا الكتاب بداية لما أصبح يعرف بالدراسة الأدبية للآخر أو الصورولوجيا[2]، هذا العلم الذي نسعى من خلاله إلى خلق فضاء مغاير تسوده الهدنة والتفاهم بين الشعوب، إذ "**تهتم دراسة الصورة (*Imagologie*) بمعرفة الصورة الذهنية التي يشكلها الإنسان عن ذاته وعن الآخرين، لذلك فإن أية صورة للآخر هي انعكاس لـ( الأنا)**

---

[1]- الطاهر أحمد مكي، الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه، دار المعارف، ط1، ماي 1987، ص 50.

[2]- ينظر : ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، ص 9 – 11.

**سواء أكانت تجسد اختلافا (الآخر مقابل للأنا) أم لقاء (الآخر يشبه الأنا) وبذلك تعد هذه الصورة فعلا ثقافيا، يقدم تفاعل الأنا مع الآخر**"[1]،أي أنه يبرز كيف يتم هذا التفاعل مع الآخر، فنلمس عبر الأدب مجمل الأفكار والقيم التي تشكل وجدان الأمة ومشاعرها.

وبما أن الصورولوجيا هي دراسة صورة الآخر، فهي إذن تعمل على اكتشاف واستخراج تلك الصور المقدمة من طرف الأنا عن الآخر، و هذا ما سنسعى إلى تطبيقه في الفصل الثاني، معتمدين في ذلك على منهج "دانيال هنري باجو *Daniel Henri Pageaux*" في تحليل صورة الآخر.

## سابعا / صورة الآخر في الوطن العربي:

إن صورة الآخر عند العرب لم تتكون من تلقاء نفسها أوفي مدة زمنية قصيرة، إذ أنّ اشتغال القبائل العربية القديمة بالتجارة والترحال المستمر نحو الشعوب المجاورة لها والبعيدة عنها، بغرض المتاجرة بالملابس والحلي والذهب وغير ذلك، وحتى لشنّ الحروب عليها أو بناء علاقات متنوعة مع مختلف المجتمعات الأخرى، لم يحصر العرب في دائرة منغلقة، بل جعلها منفتحة على مختلف الشعوب الأخرى التي تتعامل معها ممّا وسّع من دائرة معارفها،

[1]– ماجدة حمود، صورة العرب في التراث العربي، ص 195.

وجعلها تتنبه لهذا الآخر المختلف عنها وتحاول أن تشكل صورتها عنه ممّا تنقله من اختلاف في ديانته المتّبعة، عاداته، تقاليده، سلوكاته اليومية وحتّى مبادئه الشخصيّة، وقد كان لهذا دور كبير في رسم العرب وتشكيلها لصورة نمطية عنه قلّما تكون حقيقية وإلّا فهي صورة قريبة من الحقيقة أحيانا، أو بعيدة كل البعد عنها أحيانا أخرى، لأنها لم تكن صورة مقدمة عن معرفة تامة بهذا الآخر نظرا لنقص الاتصال به[1]، ولكن بعد ظهور الإسلام الذي جاء بمبادئ جديدة دعا فيها إلى التّعارف والسلم بين الشعوب، تطورت صورة الآخر عند العرب، فبعد أن كان الآخر قبل الإسلام منحصرا في عدد من الشعوب والدّيانات سبب انحصار معارف وعلاقات العرب آنذاك، أصبح بعد الإسلام متعدد العدد ومتنوعا بشدة خاصة بعد الفتوحات الإسلامية التي وسّعت الدولة العربية وجعلتها تكتشف الآخر بقوة وبشكل كثيف لا يمكن التغاضي عنه، ومن ثمة كان لابدّ على العرب أن تقدّم الآخر بالصورة التي تراه بها، كي تستطيع بعدها تحديد كيفية تعاملها معه، دون أن تتجاهل في ذلك الجانب الديني كأساس في تكوين صورتها عنه، وبهذا تصبح الأنا العربية بحاجة ضرورية لوجود الآخر الذي غدى مكمّلا لها[2].

---

[1]-ينظر : حسين العودات، الآخر في الثقافة العربية، ص 9-11.

[2]-ينظر : المرجع نفسه، ص 27- 28.

وإن كان هذا الآخر المختلف عن الذات العربية قد تعدّد و تكاثف بعد مجيء الإسلام، فإنّه بعد نشوب تلك الحروب الكثيرة و المتتالية بينها وبين الغرب، أصبح يتمثّل في الآخر الأوروبي الغربي لا غير، خصوصا بعد الظاهرة الصليبية التي ما انفكت تزيد من العداوة والبغضاء بينهما، وتشعل نيران الحقد والكره بين الطرفين، (الأنا العربي والآخر الأوروبي الغربي أو العكس)، أي (الشرق مقابلا للغرب)، ممّا دفع بكلاهما إلى تقديم صورة نمطية سلبية عن الآخر، تعكس تشويهه ورفضه له أو بتعبير أصح نفوره منه، هي بهذه الصفات تكون صورة جاحدة وغير منصفة بحق الآخر، لذا فهي بحاجة ماسّة إلى تصحيحها وتعديل الجوانب المؤذية فيها، ليقدّم الآخر آنذاك بالصورة التي يستحقها، سواء أتمثّل هذا الآخر في الغرب بالنسبة للشرق، أو في الشرق بالنسبة للغرب[1]. وبحكم ذلك التواصل الدائم والمستمر بينهما، ونظرا لعلاقة التناظر التي تربط بين الأنا والآخر (الشرق والغرب)، ينبغي أن نشير إلى أنّ الآخر – ومهما تنوّعت جوانب تفاوته عن الأنا – لابدّ له أن يعبّر بشكل من الأشكال عن الذات، "... **فالآخر – والأمر يتعلق هنا بالغرب – باعتباره اختلافا ثقافيا يشكل جزء من نظرتنا للذات**"[2]، هذا لأنّ الآخر– و إن كان مختلفا عن الذّات – فإنّه حتما يساهم في تكوين نظرتها عن نفسها، لأنها بالاستناد إليه وإلى ذلك الاختلاف الذي يميّزهما، تبدأ بإصدار أحكامها عنه وملاحظة جوانب التباين بينهما، فتستطيع من خلال هذا

[1]– ينظر : حسين العودات، الآخر في الثقافة العربية، ص 10– 14.

[2]– محمد نور الدين أفاية، الغرب في المتخيل العربي، ص 12.

الاختلاف نفسه أن تعيد تكوين نظرتها عنها وعن الآخر، ومن هذا المنظور تجدر الإشارة إلى نظرة الشرق إلى الغرب أو العكس، فالأنا هنا قد تعتمد على التفاوت الموجود بينها وبين الآخر – وإن بطريقة ضمنية – من أجل أن تكوّن نظرتها عن نفسها أو تصحّح سلبياتها عبر الأخذ بإيجابياته، خاصة إذا كان هذا الآخر يمثل المتفوّق في بعض الجوانب بالنسبة لها، ولكن هذا لا يعني أنّها ستقدّم الآخر في صورة إيجابية لا تراه بها في باقي جوانبه الأخرى، والدليل على ذلك تلك الصورة السلبية والمشوهة التي يقدّمها كل طرف عن الآخر، أو ذلك الشعور بالخوف الذي ينتاب كل من الأنا والآخر (الشرق والغرب على السواء)، وهذا ما جعل الشرق والغرب يطرحان بقوة حاليا، بحكم ذلك الاختلاف والتعارض الذي جعلهما بعيدين و وسّع الهوة و زاد من تفاقم المشاكل بينهما[1].

**ثامنا / جدلية الأنا والآخر:**

تبدو العلاقة بين الأنا والآخر علاقة جليّة لا يمكن التغاضي عنها، بحكم ذلك الارتباط الجذري بينهما، لأنه من غير الممكن وجود الأنا من دون الآخر، أو وجود الآخر من دون الأنا، بل إنّ المعرفة الحقيقية لكلا الطرفين لا تتحقق أصلا إلاّ بوجود الطرف الثاني، لأن كلّ منهما يشكّل الجزء المتمّم للجزء للآخر، بحيث يصبح كلا الجزأين ضروريا لوجود الآخر

[1]-ينظر : محمد نور الدين أفاية، الغرب في المتخيل العربي، ص 12.

وتقبّله أوّلا، ثمّ إدراكه وفهمه ثانيا، ومن هذا المنطلق ندرك أنّه من غير المعقول ذكر الأول دون الإشارة إلى الثاني نظرا لتلك العلاقة الوثيقة التي تربط بينهما (الأنا والآخر)[1]، "**فهما ذاتان منفصلتان ومتصلتان في الوقت نفسه، مفترقتان ومتحدتان، وغدت العلاقة الجدلية بينهما جزء من كل منهما وشرطا لوجوده واستمراره**"[2].

إنّ حضور الذّات هو أمر ضروري لحضور الآخر، وبالتّالي فإنّ انعدامها حتما يعني انعدام الآخر الذي يستلزم وجودها، فأينما وجد الآخر وجدت الأنا التي تعتبر كل ما عاداها آخرا بالنسبة إليها، ويؤكد هذه الفكرة " محمد عابد الجابري " في قوله: "**كل وجود غير "الأنا" هو"آخر" بالنسبة إليها**"[3]، فهي تستقل بنفسها عن كل ما يحيط بها، لتكون مميّزة عن غيرها، ومن هنا يمكن القول بأنّ العلاقة بينهما علاقة شرطية تستوجب حضور كلا الطرفين عند الحديث عن أحدهما، ممّا يؤكّد أنّه لا آخر بدون الأنا لأنّها الوحيدة القادرة على إدراك الآخر وإدراك نفسها على السواء[4].

إنّ اختلاف الأنا عن الآخر بديهيّا، وتصويرها له في أسوء الصّور وأبشعها أحيانا، لا ينفي كون الآخر دالّا عنها لا محالة، لأنّها من خلاله فقط تستطيع أن تفرض وجودها

---

[1]- ينظر : حسين العودات، الآخر في الثقافة العربية، ص19.

[2]- المرجع نفسه، ص 19.

[3]- محمد عبد الجابري، الإسلام والغرب، ص 21.

[4]- ينظر : نفس المرجع، ص 20.

وتتميّز بذاتها عنه، وهذا ما يؤكده سارتر في قوله : "**أنا في حاجة إلى توسط الآخر لأكون ما أنا عليه**"[1]، ولهذا نجدها تسعى دائما إلى اكتشاف الآخر ومعرفته، لتتمكّن عبر تفاعله معه من فهمه وفهم ذاتها أيضا في الآن نفسه، ففهم الآخر واستيعابه هو بالضرورة فهم للذات التي تعي وجوده أوّلا، ومن ثمّ تحاول إدراكه وتشكيل صورة عنه ثانيا[2].

---

[1]- محمد عابد الجابري، الإسلام، ص 23 عن : J-p. sartre, l'Etre et le néant, essai d'ontologie phénoménologique,(paris) :Galimard,1976) ,P.549

[2]- ينظر : حسين العودات، الآخر في الثقافة العربية، من ص 19 إلى21.

# الفصل الثانـي

## تجليات الآخر في "ابن الشعب العتيق"

**أولا / ملخص الرواية :**

تنقل رواية "ابن الشعب العتيق" قصة البطل الجزائري "قادر"، الذي يضطر وعائلته إلى مغادرة الجزائر، والرحيل إلى دمشق بقرار من والده " الحاج عمر"، من أجل مساندة " الأمير" في منفاه بحكم صلة القرابة التي تربط بينهم، وهناك في دمشق تعرف قادر على عائلة "آل بيكار" / "مدام أرماند" وزوجها "جوزيف"، عن طريق تردّده المستمر على دكانهما الخاص، الذي اشترياه في دمشق بعد أن طردتهما السلطات الفرنسية بسبب قضية إفلاس غامضة ومستحقات لم يستطيعا دفعها، فما كان للعائلة إلا أن اختارت دمشق كملجأ لها.

وبمرور الوقت نشأت علاقة ودية بين عائلة " قادر" وعائلة " آل بيكار"، وبالتحديد بين "مدام أرماند " و" قادر" الذي سرعان ما افتتن باللغة الفرنسية التي علمته إياها "مدام أرماند"، إلا أن اعتبارها للجزائر جزءا لا يتجزأ من فرنسا بقولها إنهم عائدون إلى الوطن الجزائر، معتبرة إياها أرضا فرنسية، كان سببا للقطيعة الفعلية بينهما.

بعد ثلاث سنوات من إقامة عائلة " قادر" بدمشق، قررت هذه الأخيرة العودة إلى الوطن، حيث شارك "قادر" في مقاومة من المقاومات الجزائرية ضد المستعمِر معبرا بذلك عن وطنيته ورغبته في استقلالية بلاده، التي دافع عنها، ولكنه في نهاية المطاف انهزم، ووقع أسيرا في يد المستعمِر، لينفى بعد ذلك إلى سجن الأعمال الشاقة بكاليدونيا الجديدة.

في نفس الوقت، وعلى الضفة الأخرى من المتوسط، وتحديدا في فرنسا، نتعرف على "ليسلي"، التي تقع ضحية لظروف سياسية داخلية قاسية تركت بصماتها على الشعب الفرنسي، حيث فقدت "ليسلي" من جرّائها أخاها "بيار" وزوجته "مارث"، لتجد فيما بعد نفسها أمام مسؤولية رعاية ابنة أخيها "كامي"، التي فقدتها هي الأخرى، ولم تتمكن، لسوء الحظ، من حمايتها بسبب تلك الظروف السياسية السائدة، ثم تُتهم بمحاولتها إضرام النار، فتجد نفسها في سجن النساء "لاروشيل" بكاليدونيا الجديدة.

بعد مرور ثلاث سنوات، قضاها "قادر" في سجن الأعمال الشاقة بكاليدونيا الجديدة، بدأت فكرة الفرار من السجن تجول في خاطره، بعد أن عرضها عليه رفيق سجنه "روغ" الفرنسي، الذي سجن بتهمة الاعتداء على ابنة رتيب في البحرية الفرنسية، وبالرغم من أن "قادر" كان شديد الخوف والقلق من فشل عملية الفرار، إلا أن إلحاح "روغ" عليه، وعدم توفر أي خيار آخر أمامه، جعله يقتنع بأمر الهروب ويوافق عليه، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن؛ فينقلب "روغ" على "قادر" أثناء فرارهما، ويحاول التخلص منه. ولكن الجزائري "قادر" يدافع عن نفسه ويقتله، وينطلق بالسفينة في زرقة البحر، تاركا إياه يحدد وجهته، إلى أن رست به السفينة على شاطئ نهر قريب من سجن النساء أين بدأ يتملّكه الخوف والقلق من الموت جوعا وعطشا.

تجده " ليسلي" بعد أيام، فترتاب وتسرع فارة منه ثم تعود بعد ذلك بصحبة صديقتها "ماتيلد" التي ساعدته، وآوته في كوخها، إلى أن تحسّن، فطلب من "ليسلي" مساعدته على الفرار بإرسالها إلى قائد السفينة التي ستبحر بهم إلى استراليا، فوافقت هذه الأخيرة بشرط أن ترافقه أيضا. وهكذا تولت "ليسلي" مهمة إقناع القائد رغبة منها في الابتعاد من المعاناة التي كانت تعيش فيها، ومن ثمة استرجاع حريتها، وإن كان ذلك على حساب شرفها، أما "قادر" فتكفل بمهمة تدبر المال الوفير الذي طلبه قبطان السفينة "بروس" الذي وافق أخيرا على اصطحابهما معا في سفينته، بعد استجابتهما لطلباته.

في طريق رحلتهما إلى استراليا كانت "ليسلي" و"قادر" غريبين تماما لا أحد منهما يوجه الكلام للآخر، ولكن بعد أن توقفت السفينة في جزيرة تسمانيا ليلتحق بها مجموعة من الصيادين المحملين بالصناديق، بزعامة الشقيق الأصغر لـ "بروس" المدعو "أوهارا"، وبعد أن اكتشفت "ليسلي" وجود طفل زنجي صغير / "تريدارير" من جزيرة تسمانيا مكبلا بالقيود داخل أحد هذه الصناديق، تغير الوضع بينها وبين " قادر"، فاتحدا وحاولا معا مساعدة " تريدارير"، وانقاذه من أيدي الصيادين، الذين مارسوا أبشع أشكال الإبادة الجماعية في حق تسمانيا، رغبة منهم في تصفية الجزيرة من سكانها الأصليين وإزاحتهم عن الوجود، وهكذا لم تضع محاولة "ليسلي" و"قادر" هباء، بل إن اتحادهما معا مكّنهما من تخليص "تريدارير" من عنف

الصيادين ووحشيتهم، بعد أن ألقيا بجثتي والدي الصغير "تريدارير" في البحر، لكي لا يستفيد الصيادون من بيعها، فاستطاع "قادر" و"ليسلي" الفرار من السفينة أخيرا.

ولكن هذا لا يعني نهاية متاعبهما، وإنما بداية رحلة جديدة في أستراليا، جعلتهما يواجهان مصاعب عالم جديد لا يعرفان عنه شيئا، ويحاولان دوما الدفاع عن "تريدارير" الذي كان منبوذا من طرف البيض، ومرفوضا بينهم فقط لكونه أسود البشرة، فاستمرت رحلتهما برفقة الطفل الصغير، ثم اضطرا إلى تغيير اسميهما من"قادر" إلى "هاري" ومن "ليسلي" إلى "إليزابيث"، وفي النهاية استقر ثلاثتهم في مدينة "أليسون"، وتزوج "قادر" بـ"ليسلي" واعتنيا معا بـ"تريدارير"، ثم رزقا بعد ذلك بصبي أسمياه "جوزيف" أو "يوسف" الذي تزوج هو الآخر من "مارغريت" وأنجبا صبية تدعى "جوان".

بعد مرور مدة زمنية، تنام "ليسلي" طريحة في الفراش بسبب مرضها، فيتألم "قادر" عليها ألما كبيرا لخوفه من فقدانها، ولكن القدر يشاء أن يبعدها عنه، فحزن "قادر" عليها، وحزن "تريدارير" أيضا لمفارقتها حزنا شديدا دفعه إلى الرغبة في مغادرة الحياة والالتحاق بوالديه، وفعلا كان هذا ما فعله إذ ألقى بنفسه في البحر الذي ألقي فيه والداه، ليموت غرقا.

**ثانيا / أوجه ظهور الآخر في رواية "ابن الشعب العتيق" :**

بما أن الذات في هذه الرواية هي العربي المسلم، فإن كل ما هو مختلف عنها سواء في الانتماء، الدين، اللغة، الثقافة أو العرق ... فإنه يمثل آخرا بالنسبة لها، ومن هنا كان الآخر في هذه الرواية آخرين اثنين؛ فمن جهة هو المستعمِر الغربي، ومن أخرى هو "تريدارير" وعائلته وعرقه. إن المتمعن في هذه الرواية يدرك منذ الوهلة الأولى أن صداما بين الأنا والآخر سيحدث لا محالة، فالرواية هنا تتناول ثنائيات مختلفة منها الجغرافية { الشرق مقابل الغرب }، والعرقية { (الأنا) الأبيض مقابل (الآخر) الأسود }،والدينية { (الأنا) المسلم مقابل (الآخر) المسيحي }.

يتجلى ظهور الآخر في رواية "ابن الشعب العتيق" من خلال وجهين أساسين هما:

أ. **الوجه الأول** : يتمثل في الشرق المستعمَر (الأنا) مقابل الغرب المستعمِر (الآخر) :

بما أن رواية "ابن الشعب العتيق" قد عالجت ثورة الجزائر على الاحتلال الفرنسي، وإن لم تولها من الاهتمام ما أولته لقضية الصراع العرقي وإبادة السود، فهي إذن تتحدث عن الاستعمار الغربي للشرق، أو بشكل أدق عن الاستعمار الفرنسي للجزائر، الأمر الذي يجعل من الشرق المستعمَر ذاتًا مركزية تنظر إلى الغرب المستعمِر على أنه آخرا بالنسبة لها، ليس فقط بحكم تلك العلاقة العدائية التي تجمعهما، لكن أيضا بحكم ذلك الاختلاف الكلي بينهما.

ب. **الوجه الثاني** :يتمثل في"الأنا"الأبيض مقابل الآخر "الأسود":

لقد تناولت الرواية قضية الصراع العرقي بين الأسود والأبيض بشكل قوي، إذ نجد في ثناياها مختلف أشكال العنف والإبادة التي مورست في حق السود، من أجل القضاء عليهم وإفنائهم، وهذا ما يتبين من خلال ما حل بعائلة "تريدارير" وعرقه.

## ثالثا / تمثيلات الآخر في رواية"ابن الشعب العتيق":

لقد تناولت هذه الرواية "الآخر" بصورة جلية لا يمكن تجاهلها، إذ تعددت صوره واختلفت تمثيلاتها من خلال مجموعة من القضايا أهمها:

### أ. قضية الاستعمار:

لطالما سعى المستعمِر (الآخر) إلى السيطرة على المستعمَر (الأنا) من خلال استخدامه لأبشع الأساليب في معاملته له، ومحاولته سلب إنسانيته وتجريده من مبادئه وقيمه، لأنه لا يسعى إلا لسلب أفكاره واستغلال ثرواته، إن لم نقل القضاء عليه وتحطيم كيانه لتحقيق جل غاياته وأهدافه، وهذا ما يتضح في الرواية من خلال:

- **الاحتلال الفرنسي للجزائر (قادر):**

لقد مثّلت شخصية "قادر" في رواية "ابن الشعب العتيق" أحد أهم مظاهر الاستعمار فيها، وهذا من خلال انتماء البطل "قادر" إلى بلاد الجزائر، التي استطاع الاستعمار أن يمارس فيها أبشع أشكال الوحشية والعنف في حق الشعب الجزائري البريء، وهذا ما يُبيّنه قول "حسن" لابن خالته "قادر": " ... **يقوم الجيش الفرنسي بقص أشجار النخيل والزيتون، وتوقيف المحرضين وزيادة الضرائب، التي إن لم ندفعها، سارعوا إلى مصادرة أراضينا ليقيموا عليها منازل تأوي الألزاسيين والمالطيين من أبناء جلدتهم**"[1]، كما نجد "قادر" حائرا بين أدب المستعمِر من جهة ومكره وتسلّطه من جهة أخرى حيث يقول: "**إذ كيف كان من الممكن كتابة أشياء خلابة كهذه، وارتكاب المجازر بحق الأبرياء وطردهم من منازلهم من دون رحمة في آن؟**"[2]، وهو بهذا يشير إلى ظلم وعدوانية المستعمِر بالرغم من ثقافته وتحضّره و روعة آدابه.

لقد تعددت المقاومات التي دافع فيها الشعب الجزائري عن وطنه، ليكون بذلك مثالا للمستعمَر الذي لا يقبل الرضوخ، فها هو" قادر" يتشجع ويشارك رفقة ابن خالته وغيره من الثوار في مقاومة " المقراني" "**فخلال ثورة أبناء قومه على المحتل الغاشم للبلاد، شهد قادر**

---

[1] – أنور بن مالك، ابن الشعب العتيق، تر: رلى ذبيان، سيديا فرع مجمع هاشت الفرنسي في الجزائر، ط1، الجزائر، 2007.

[2] – الرواية، ص 53.

**الشجاعة المنقطعة النظير..."**[1]، ليعبر بذلك عن المواطن الجزائري الصامد أمام المستعمِر الذي نكل بالشعب الجزائري شرّ تنكيل، وسعى جاهدا لتحطيم كيانه وتدميره، ولكن شاءت الظروف أن يقع "قادر" أسيرا في يد العدو أثناء دفاعه عن وطنه، ليسجن بعد ذلك ثم ينفى إلى سجن الأعمال الشاقة بكاليدونيا الجديدة.

- **الاحتلال البريطاني لجزيرة تسمانيا (" تريدارير" وعائلته):**

استطاعت معاناة عائلة "تريدارير"، وبشكل جلي لا يمكن إغفاله، أن تظهر الوجه البشع للاستعمار البريطاني لجزيرة تسمانيا، التي تمثل الموطن الأصلي لـ"تريدارير" وعائلته، حيث ارتكب البريطانيون شتى أنواع الإجرام، النهب الإبادة في حق سكان تسمانيا الذين كانوا بمثابة صيد وفير لهم، وفي هذا الصدد نجد القبطان "بروس" يصرّح قائلا: "...**أنا أيضا ساهمت في عمليات الإبادة الجماعية. كنت وأخي من أفضل الصيادين المتمرسين في القبض على الزنوج**"[2].

يُعتبر ما حل بعائلة "تريدارير" مثالا حيا للهمجية الاستعمارية والسياسة اللاإنسانية المنتهجة تجاه السود الذين رُفضوا وعوملوا بطريقة شنيعة لم تسلم منها حتى جثثهم الهامدة، إذ نجد

---

[1] – الرواية، ص 235.

[2] – الرواية، ص 224.

على سبيل المثال "أوهارا" يأمر أحد رجاله قائلا:"...**عليك إفراغهما، ثم حشوهما بالملح، وهكذا يتحملان الأمر إلى حين حلول موعد البيع على الأقل**"[1].

لقد عانى الصغير "تريدارير" الأمرين منذ نعومة أظافره، إذ عرف ألوانا من البؤس والشقاء يصعب تحملها على صغير مثله، فقد قتل والداه بأبشع الطرق، ثم كبّل هو الآخر بالقيود، ووضع في صندوق بغية بيعه في النهاية كما تباع الماشية أو الأغراض المختلفة، فهاهو "قادر" يقول له: " **لقد كابدتَ ما لا يقوى راشد على مكابدته من مآس. إنك عجوز في البؤس، يا أخي الصغير. نحن أمامك، لسنا إلا أبناء لك**"[2].

تُظهر نظرة الاستعمار، ومعاملته للزنجي/الأسود بوصفه مستعمَرا، وجهه البشع من طرف، ورغبته في إبادة السود وإفناءهم من طرف آخر، وهذا ما يتضح بقوة من خلال إن احتقار الإنسان الأبيض للزنوج ونفوره منهم لا لشيء لاختلاف عرقهم عنه، وانحدارهم من سلالة مختلفة يرفض رفضا مطلقا التعامل معها، ويتبين هذا من خلال قول الشرطي لـ "ليسلي": "**إنك تدخلين الفوضى إلى هذه الديار، يا سيدتي. فالأسود قرد، ولا ينبغي عليه أن يشابه أبيض، وإلا، ما من شيء يبقى على حاله أو في مكانه! "**[3].

---

[1]- الرواية، ص 129.

[2] - الرواية، ص 250.

[3] - الرواية، ص 320.

**ب. <u>قضية الصراع العرقي</u> :**

بما أن الرواية لم تعالج قضية الاستعمار بقدر ما عالجت قضية الصراع العرقي وإبادة السود، فإن الآخر العرقي نجده حاضرا بقوة في هذه الرواية، وهو يتجسد في شخصية "تريدارير" وعائلته وعرقه، أي الصراع بين الرجل الأسود والرجل الأبيض الذي يعتبر نفسه الأجدر بالأولوية عرقيا، والأحق بكل شيء، إذ نجده يعامل الأسود معاملة شنيعة تتعدّد فيها أشكال الاستغلال والقتل والعنف والنبذ، كما أنه يحتقره احتقارا تاما ولا يعتبره أصلا إنسانا، أو يستحق أن يكون كذلك، فهو يعده حيوانا لا غير، وهذا ما يؤكده قول "أوهارا" لـ "هاغي": "...**فهذا – وأشار إلى الصبي– حيوان، والحيوان عار على الدوام**"[1]، كما أنه لم يكتف بازدرائه ومعاملته معاملة سيئة – أقل ما يمكن القول عنها – أنها معاملة جائرة في حق الزنجي/الأسود، وهذا ما يبينه قول صاحب النزل لـ "ليسلي": "...**أما الزنجي الذي يصحبكما، فسينام في الإصطبل؛ وهذا جيد بالنسبة إليه، مع العلم أنني أخشى أن يقوم بسرقة واحد من جيادي...**"[2]، بل هو دائم الإساءة إليه بمختلف الأوصاف السلبية اللاّإنسانية، إذ نجد "بروس" يردّ على "ليسلي" قائلا: "**اطمئني، أيتها الباريسية فالزنجي لا يواجه أي خطر. إنه نتن، ويشع وفاسد كما الجرذ...**"[3]، ثم إن الأوروبي لا يرى في الزنجي إلا وسيلة للحصول

---

[1] – الرواية، ص 170.

[2] – الرواية، ص 314.

[3] – الرواية، ص 223.

على المال عن طريق المتاجرة به، إذ يقول "أوهارا": " **آه تلك كانت تجارة وافرة الأرباح. إذ كانت تدر علينا خمس جنيهات مقابل الزنجي الراشد، واثنين مقابل الطفل**"[1]، فالزنوج في نظر الأوروبي، هي عبارة عن مخلوقات ليس لديها الحق في العيش كغيرها. ونظرا لكل هذا لا ينفك الإنسان الأبيض يسعى وراء إبادة مجتمعات السود وإزاحتها عن الوجود رغبة منه في القضاء عليها والتخلص من عرقها الأسود، وهذا ما يتضح في قول "قادر" لـ"تريدارير": "**آه، يا تريد ... ما من شييء تغير فعلاً في استراليا خلال السنوات الأخيرة. فمجازر الإبادة بحق السكان المحليين لم تتوقف...**"[2].

**جـ. <u>ظاهرة التباين الديني</u> :**

لقد مثلت رواية "ابن الشعب العتيق" جانبا آخرا من جوانب الاختلاف بين" الأنا " الشرقي و" الآخر" الغربي في الرواية، ويبدو ذلك واضحا في ظاهرة الاختلاف الديني بين الأنا والآخر ( الإسلام – المسيحية). أما الإسلام فقد جسّده الفضاء الشرقي (الجزائر ودمشق)، بحكم أن المجتمعين الجزائري والدمشقي ينتميان إلى المجتمعات الشرقية المسلمة، وهذا ما يعني أن البطل الجزائري "قادر" (الأنا) مسلم، وهذا ما يتبين من خلال هذه العبارة: "... **كان قادر، وقد بَلَغَ سِن المراهقة، يقصِد باكراً المدرسة القرآنية الملاصقة للجامع**

---

[1] – الرواية، ص 224.

[2] – الرواية، ص 471.

**الأموي الكبير، حيث كان يتعلم يوماً بعد يوم دقائق التفسير القرآني..."**[1]، وأما المسيحية فقد جسّدها الفضاء الغربي (فرنسا وأستراليا)، بحكم أن المجتمعين الفرنسي والأسترالي ينتميان إلى المجتمعات الغربية المسيحية[2].

وعموما فإن نظرة الغربي المسيحي إلى الشرقي المسلم كانت ظاهرة بشدة في هذه الرواية، وهذا من خلال ازدراء المسيحي واحتقاره للإسلام والمسلمين العرب، ويتبين هذا في قول الحارس لزميله: "**دع الأعراب وشأنهم إنّهم لا يفقهون شيئا مما ترطن به**"[3].

وأما الأمر المريع، فهو أن الله سبحانه وتعالى نفسه لم يسلم من شتائم المسيحيين له وسخريتهم منه، إذ يجيب زميل الحارس قائلا: " **هذا طبيعي، فإلههم يخشى داء المفاصل وهو يفضل الصحاري القديمة الكثيرة الجفاف على ماء المحيطات**"[4]، بل إن المسيحيين لا يرغبون أصلا في أن تربطهم بالمسلمين أية صلة، والدليل على ذلك قول "روغ" لـ "قادر" : " **لو عاد الأمر لي، لما اخترت محمديا لأن يكون رفيق دربي ...**"[5].

وبهذا تكون رواية "أنور بن مالك" قد أبرزت– وبوضوح – اختلافا موجودا لا محالة بين الأنا الشرقي المعتنق للديانة الإسلامية، وبين الآخر الغربي المعتنق للديانة المسيحية، إذ أن

---

[1] – الرواية، ص 50.

[2]– ينظر: الرواية، ص 34.

[3] – الرواية، ص 96.

[4] – الرواية، ص 96.

[5] – الرواية، ص 135 – 136.

الغربي المسيحي لا يضيع أية فرصة أتيحت له في سبيل شتم ديانة الإسلام والحط من قيمتها، ثم إن كون الغرب هنا مستعمِر، فهو إذا ينسب كل الصفات السلبية للمستعمَر وديانته (الشرق)، في حين ينكر هو جميع جرائمه، ويرى بأنه المثالي الذي يمثّل كل قيم الحضارة والمدنية، وبأن ديانته هي الديانة الأفضل والواجب اعتناقها.

**د. <u>استعباد السود وإبادتهم</u> :**

لقد بدا الصراع بين(الأنا)الأبيض و(الآخر) الأسود أمرا جليّا مفروغا منه في هذه الرواية، إذ نجده يتجسَّد بشكل بارز في استعباد الإنسان الأبيض للأسود وإبادته له، بل ومعاملته بلا إنسانية ووحشية ينزف القلب دما عند مشاهدتها، خاصة إذا تعلق الأمر بطفل بريء لا يعي شيئا بعد، وهذا ما يتضح من خلال تلك الحالة المرثية التي وجدت فيها "ليسلي" الطفل "تريدارير" " **كان الولد الصغير موثوق اليدين والرجلين بحبال رفيعة تنغرس في جلده، وقد كمّ فاه بخرقة ما لبثت أن انزلقت رويدا رويدا إلى داخله بفعل اللّعاب الذي ساعد على ترطيبها** "[1]، وأيضا من خلال تلك النظرة الفوقية التي ينظر بها البيض إلى السود (الزنوج) بكل ما فيها من احتقار وازدراء كبيرين يصعب وصفهما، وهذا ما يتبين من خلال قول الشرطي لـ"ليسلي": "**لقد أخطأتما باصطحابه معكما، وخصوصا بإعطائه ثيابا يلبسها. إنكما بذلك تحملانه على اتخاذ عادات سيئة، إذ سينتهي به الأمر إلى الاعتقاد**

[1] – الرواية، ص 217.

**أنه يشبهنا**."[1]، فهو بهذا يبين رفض البيض للسود وحرمانهم من أبسط الأمور حتى اللباس، ثم إن البيض يتعاملون مع الزنوج بعدوانية شديدة من السفالة اعتمادها تجاه أي كائن بشري، وما بالك إذا كان هذا الكائن ضعيفا لا يمكنه المقاومة، بل إن البيض– وبما فيهم أولئك الذين هاجروا إلى أستراليا–، يحتقرون الزنوج احتقارا جمّا، وينفون عنهم صفة الإنسانية ومشاعرها مثل الشعور بالألم، إذ يعتبرونهم مخلوقات لا تتألم، وفي هذا المقام نجد ردّ المزارع على "ليسلي" قائلا: "...**إنهم مخلوقات لا تتألم كما نتألم نحن**"[2].

وبهذه الطريقة استطاعت رواية "ابن الشعب العتيق" أن تجسّد وبقوة استعباد الإنسان الأبيض لغيره من البشر من منطلق عرقي بحت، إذ نجد البيض في هذه الرواية، مجردين من القيم البشرية، والمبادئ الأخلاقية، وحتى المشاعر والأحاسيس الإنسانية إذا ما تعلق الأمر بالعرق الأسود الذي ينفرون منه بأي شكل من الأشكال، ولهذا نجدهم يسعون إلى إبادة مجتمعات السود وإزاحتها عن الوجود عن طريق عملية التطهير العرقي، إذ يقول "بروس" لـ "لسلي": " **لم يكن بوسعنا أن ندع الزنوج الفاشلين يستولون على جنة الخلد هذه، وقد وجدت على الأرض لنفيد منها، أليس كذلك؟ وهكذا نظفنا، طهرنا...أنا أيضا ساهمت في عمليات الإبادة الجماعية** "[3]. كما استطاعت الرواية أن تجسد أيضا تمكّن

---

[1] – الرواية، ص 319 – 320.

[2] – الرواية، ص 307.

[3] – الرواية، ص 223 – 224.

الأبيض من إبادة العرق الأسود لسببين؛ من جهة ضعف السود، وعدم قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم، وربما لم تفد أسلحتهم في وجه البيض، ومن جهة أخرى قوة الأبيض، وإصراره على الإبادة، لأنه يرى أن العرق الأسود هو عرق دنيء لا يمكنه أن يقارن بالعرق الأبيض.

## رابعا / دراسة أهم الشخصيات الممثلة للأنا والآخر :

بما أن الأنا والآخر في هذه الرواية قد تمثلا بوضوح في شخصيتي " قادر" و"تريدارير"، فمن دون شك ينبغي علينا أن نقدّم دراسة لهاتين الشخصيتين:

### أ. شخصية " قادر" :

تعد شخصية " قادر" الشخصية الرئيسية التي تمثل الأنا الشرقي المسلم في الرواية، فبما أنه ينحدر من أصل جزائري، وتحديدا من مدينة بسكرة، إذ نجد "قادر" في حديثه مع ابن خالته "حسن" يتذكر أيام طفولتهما في بسكرة ويتضح هذا من خلال هذه العبارة:" **تعود الذاكرة بقادر إلى تلك الأيام، عندما كانا لا يزالان ولدين مشاغبين، يستمتعان بحياة هانئة ساحرة في واحة بسكرة** "[1]. فهو إذن ينتمي إلى الشرق الإسلامي لا إلى الغرب المسيحي، ويتحدث باللغة العربية لا باللغة الفرنسية، وإن كان مهتما بتعلمها، إذ نجده يشعر أحيانا بنوع

[1] – الرواية، ص 35 – 36.

من الاضطراب والحيرة والقلق، حيث أنه كان يعبّر عن فرحه وحزنه بالعربية، وأما شهواته وملذاته فكان يعبر عنها بالفرنسية حيث يقول:" **إنني أنتشي وأغتم بالعربية، وتراودني أفكار اللباقة واللذة بالفرنسية**"[1]، وبالتّالي فإنّ انتماء "قادر" ولغته وديانته المختلفة تماما عن الآخر الغربي، جعلت منه "أنا" أساسية فرضت نفسها في الرواية، فكانت الشخصية الأكثر بروزا فيها، لأن معظم الأحداث الروائية تدور حولها، إذ نجدها شخصية معبّرة وممثّلة بشدة، فهي لا تمثل المثقف العربي المسلم الشرقي في صدامه مع الغرب من جهة، وفي محاولته الانفتاح على ثقافة الآخر من جهة أخرى، بقدر ما تمثل الصراع بين الشرق المستعمَر (الأنا) والغرب المستعمِر (الآخر) الذي ينظر إلى الشرق نظرة استعلاء، وينهبه خيراته ويحرمه حريته وسيادته على أرضه، ويمارس أبشع أساليب العنف والقتل والاغتصاب في حقه، وعلى أية حال فإن " قادر" يمثل الشرق بشكل عام والعالم العربي بشكل خاص في صراعه مع الغرب المستعمِر، إذ نجد فيه الإنسان الجزائري الذي دغدغته نخوته وروحه الوطنية، لتدفع به بعد ذلك إلى مواجهة خصمه المستعمِر لبلاده، عن طريق مشاركته في مقاومة من المقاومات الجزائرية، وهذا ما يدل على شجاعته وتحديه، وبالرغم من كل عاناه بعد أن أسر ونفي إلى كاليدونيا الجديدة، وفي هذا السياق نستشهد بهذا المثال: "**أما في مركب الترحيل إلى كاليدونيا الجديدة، شهد قادر اشتداد حزن المنفيين مع كل موجة**

[1] – الرواية، ص 57.

**حملتهم بعيدا وإلى الأبد عن من يحبون**"[1]، إلا أنه ظل يواجه صعاب الحياة ولم يستسلم لقساوة الواقع الذي يعيش فيه، وهذا ما يعني أنه مقاوم لا يضعف أمام عقبات الحياة، بل يسعى لتحقيق رغبته في العيش بأمان على الرغم منيأسه وفقدان إيمانه، إذ يقول "قادر":"**أما أنا، فما عدت أؤمن بالله منذ زمن بعيد...**"[2]. فهو البطل الحركي الذي يرفض السكون والثبات للمستعمِر وقهره، وهذا ما يتأكد لنا من خلال مواجهته للقهر السياسي للمستعمِر الفرنسي في الجزائر، ثم بعد ذلك مواجهته للقهر الاستعماري تجاه العرق الأسود، ويتجلّى هذا من خلال دفاعه عن " تريدارير" أمام المستعمِر الغربي، الذي يرى بأنه الأقوى ذو العرق النقي والصافي، وبالتالي فهو يرفض الخضوع لسيطرة المستعمِر. باختصار يمكن القول بأن "قادر" هو الشخصية التي اختارها الروائي لتعبّر عن الإنسان العادي، البسيط الذي لا يفرق بين الأبيض والأسود، بل يعامله كغيره من البشر دون أن يسيء إليه، والدّليل على ذلك قول "تريدارير" عنه وعن "ليسلي": " **هذان الأبيضان هما أول البيض اللذان لم يتعَرضا لي بالأذية**"[3]، كما أنه يمثل البطل الشجاع، المقاوم، المتحدي في صدامه مع الغرب وثقافته، وهو بهذه الصفات لا يمثل الإنسان الضعيف الراضي بواقعه، ولكنه نموذج للبطل الإيجابي الذي يطمح في التغيير نحو الأفضل.

---

[1] – الرواية، ص 235.

[2] – الرواية، ص18.

[3] – الرواية، ص 346.

ب.**شخصية "تريدارير"** :

هي الشخصية الأساسية التي تمثل الآخر في الرواية لأن "تريدارير" ينتمي إلى تسمانيا، ما يعني أنه لا ينتمي إلى الشرق الإسلامي، فهو من أصل زنجي يمثل آخر سكان تسمانيا، إذ يقول الصياد "لوسون": "...**آخر زنجي صغير من تسمانيا**"[1]، وإذا ما حاولنا تحليل شخصية " تريدارير" فإننا نجدها شخصية بارزة بقوة لأن معاناة "تريدارير" تعد صورة من صور الصراع العرقي الموجود في الرواية، فهو يعبر عن الإنسان الأسود، والمعاناة التي يعيشها بسبب احتقار الأبيض ورفضه له، ومن ثم سعيه إلى إبادته. ولكن بالرغم من قساوة الحياة على "تريدارير"، وصغر سنه، وقلة خبرته في الحياة، ووحدته، وخوفه نجده صامدا أمام عنف الصيادين ووحشيتهم، إذ شاهد بشاعة الإجرام الممارس تجاه والديه أمام عينيه وهو ما يزال بعد صغيرا. كما نجده قويا وشجاعا في مواجهة مصاعب الحياة حيث نجد "قادر" يقول له: " **يالك من دُوَيْدَة صغيرة ! لتكن الأرض حليمة معك ! لقد جَرُؤْتَ فَتحَدَّيْتَ تنيناً قادراً على تهشيمك بأسنانه. لو كنت في سنك، لما وجدت في نفسي الشجاعة لأفعل ما فعلته أنت. في صغري، لم أَكُن إلا أقل عُرِيًّا منك. ذاك ما يميزني عنك !**"[2]. باختصار يمكن أن نقول بأن شخصية "تريدارير" هي شخصية ممثِلة و معبرة بشدة، لأن الرواية في الحقيقة تدور حول هذا الطفل الصغير "تريدارير"، وعنوانها يدل على ذلك، ولأن هذه

---

[1] – الرواية، ص 174.

[2] – الرواية، ص 308.

الشخصية استطاعت أن تجسّد وبوضوح المعاناة الشديدة للعرق الأسود بسبب الرفض التام الذي تلقاه من قبل الأبيض.

## خامسا/ العلاقة بين الأنا والآخر في الرواية:

لقد اختلفت العلاقة بين الأنا والآخر في هذه الرواية، باختلاف الآخر المتعامَل معه، وبما أن "الأنا" في هذه الرواية هي "الأنا" العربي الشرقي المستعمَر، فإن العلاقة بين الأنا والآخر تتحدد من خلال علاقة الأنا (قادر) بمن حوله، ونعني بهذا علاقته بالآخر الأوروبي الغربي (المستعمِر)، بما فيه العسكريين الممثلين في الأوروبي المسلح، والمدنيين الممثلين في كل من "ليسلي" وعائلة "آلبيكار" وبالتحديد مدام"أرماند"، وكذلك علاقة الأنا (قادر) بالآخر العرقي الأسود الممثل في عائلة " تريدارير" وعرقه، ومن هذا المنطلق سنحاول تبيان نوع العلاقة التي تربط الأنا بالآخر، إذ نجدها قائمة على النحو التالي:

### أ. علاقة الأنا (قادر) بالآخر :

- **علاقة "قادر" بالعسكريين** : هي علاقة جد واضحة مادام "قادر" هو المستعمَر والعسكري هو الفرنسي المستعمِر، ولا شك في أنها علاقة عداوة قوية، يحاول كل طرف فيها تحقيق وجوده من خلال مواجهة الطرف الآخر، ففي الوقت الذي يحاول فيه المستعمِر

السيطرة والتسلط على الجزائر وشعبها، يحاول "قادر" في الوقت نفسه مواجهةا لمستعمِر والدفاع عن وطنه، لذا فالعلاقة بينهما تبدو سهلة الاستيعاب، والأمر الذي لا يمكن الاختلاف فيه أنها علاقة تقوم على العداوة والبغضاء.

- **علاقة "قادر"بالمدنيين** : هي علاقة مختلفة عن سابقتها لأنه وبالرغم من أن المدنيين هنا هم فرنسيون إلا أن نوع العلاقة بينهم وبين "قادر" مختلفة تماما.

**1. علاقة "قادر" بعائلة "آل بيكار" وبالتحديد "مدام أرماند" في دمشق** : إن العلاقة التي تربط بين هذين الطرفين هي في الواقع علاقة ود ومحبة متبادلة بينهما، استطاع من خلالها "قادر" أن يكتشف لغة جديدة هي اللغة الفرنسية، ويتعلمها، ويكتشف من ثم عالما آخر مختلف تماما عن العالم الذي يعيش فيه، مما جعل أبناء قومه يشكون فيه وفي وطنيته إذ كانوا يتهامسون بينهم: "...**لِفرط ما نطق والتصق بكلمات أعدائنا، انتهى به الأمر ولا شك إلى عدم الشعور بالكراهية تجاههم، وهو ما سيدفع به إلى المواربة عند حلول اللحظة الحاسمة**"[1]. ولكن هذه العلاقة سرعان ما تحولت من علاقة طيبة جدا، إلى قضية مبدأ عند "قادر"، بعد أن اكتشف نظرة "مدام أرماند" الحقيقية للجزائر ورفضها المطلق لثقافة الشرق، وهذا ما يؤكده قولها لـ "قادر": " **ينبغي لك يا صغيري أن تذهب إلى باريس حيث يمكن لذهنك أن يجد الصفاء والنقاء، فتنكب على تعلم المفيد. إنك تهدر وقتك وذكاءك**

[1]- الرواية، ص 43.

**بصحبة أولائك الذين يعتمرون العمائم في الشام، وينطقون بثرثرات عفنة حول ما يجوز وما لا يجوز. هاك انظر إلى هذا الطربوش المثير للضحك الذي تعتمره "**[1]. إذ كانت "مدام أرماند" تسخر من ثقافة الشرق بما فيها من عادات وتقاليد كاعتمار الشرقي للطربوش على رأسه، كما أنها تحتقر أحكام الدين الإسلامي وقواعده، حيث أنها كانت تدعو "قادر" إلى الذهاب إلى باريس، لأنها مقتنعة بأنه المكان الذي يمكن أن يقدم له الأفضل، ويسمح له بالاستفادة من ذكائه،ولكن حب "قادر" لها جعله يتجاهل ويتغاضى عنها، ولكنه بعد أن أدرك أن "مدام أرماند" تعتبر الجزائر فرنسية، فهِم أن الفرنسيين كلهم سواء، وقد آلمه هذا كثيرا بسبب علاقة الحب والود التي كانت تربطهما، وقد كان هذا سببا للقطيعة الفعلية بينهما التي أفسدت علاقتهما أخيرا، لأن "قادر" تفطّن أخيرا للنوايا الحقيقية للمستعمِر الذي يظل دوما عدوا مهما تقاربت المسافة بينهما، مما جعله يعتزل الحديث باللغة الفرنسية، إذ يقول: "**إنهذا ليس عدلا، تعرفون ذلك! تلك كانت آخر جملة نطق بها بالفرنسية لزمن طويل، إذ أصبح النطق بهذه اللغة أكثر صعوبة من ابتلاع حسكة، وبدت كل كلمة فيها تخفي في طياتها الناعمة الرقيقة، خيانة تتربص به "**[2]. فما كان لعلاقتهما التي كثيرا ما قامت على الحب والمودة ، نظرا للآلام والهموم المشتركة التي ربطت عائلتي "آل بيكار" و"قادر" كآلام النفي

---

[1]- الرواية، ص 58.

[2]- الرواية، ص 62.

والاضطرار الدائم للابتعاد عن أرض الوطن إلا أن ساءت وصارت ماضيا مؤلما لـ"قادر"، أحسسه بنوع من الخيانة يتغلغل فيه.

2. **علاقة قادر بـ" ليسلي "** : هي علاقة متغيرة بتغير الظروف التي تجمع بينهما، ففي بادئ الأمر كانت العلاقة بينهما علاقة مصالح متبادلة يسعى فيها كل طرف إلى تحقيق مبتغاه ومراده المتمثل في الابتعاد والهروب بعيدا عن البؤس والشقاء الذي كانا يعانيان منه بسبب الظروف القاسية التي مرا بها، وهذا ما يتجلى من خلال اتفاقهما على الفرار معا إلى أستراليا بعد أن وجدته "ليسلي" ضائعا في الغابة عند هروبه من سجن الأعمال الشاقة بكاليدونيا[1]، وبالرغم من عدم معرفة أحدهما للآخر، فـ"ليسلى" لا تعرف عن "قادر" إلا أنه السجين الذي قتل شخصين من أجل الفرار، وأما هو فلا يعلم عنها شيئا، إلا أنّ رغبتهما الشديدة في الابتعاد عن تلك الظروف المزرية التي كانا يعيشانها بكاليدونيا جعلهما يتعاونان معا من أجل الإبحار إلى أستراليا.

ساءت العلاقة، التي كانت محكومة منذ البداية بالمصلحة المتبادلة والخوف والارتياب والحذر، أثناء الإبحار، عندما اضطرت "ليسلي" إلى أن تدفع من نفسها مقابل حريتها، وأصبحت الآن علاقة نفور وكره يكنه كلاهما للآخر، فهي تعتبره قاتلا لا غير، في قولها

---

[1]-ينظر: الرواية، ص 160 – 161.

له:" **لا تلمسني يا قاتل !**"[1]. أما هو فيعتبرها فاسقة وعاهرة، إذ رد عليها قائلا: " **وأنت، لست إلا عاهراً. أنا، من الممكن أن أكون قاتلاً؛ أما أنت، فإنك عاهر بالتأكيد. وكوني كنت شاهداً على مجونك، فإنه لا يسعني أن أتعامل معك، بأفضل مما تعاملت أليس كذلك؟**"[2]، ولكن العلاقة بينهما تتحسن عندما يعثران على "تريدارير" مقيد داخل صندوق، فيخرجانه، ويساعدانه حتى يصلوا جميعا إلى أستراليا، فأصبحت علاقتهما تقوم على التعاون الذي مكنهما من المكوث في هذا البلد الأجنبي، ومن حماية "تريدارير" من كل سوء قد يتعرض له. وهكذا واصل كلّ من "ليسلي" و"قادر" رحلتهما برفقة "تريدارير"، وتمكنا من تصحيح نظرة كلاهما للآخر بعد الرحلة التي تشاركاها غصبا، وانضم إليها تريدارير، وقد استطاعا أخيرا أن يكوّنا عائلة، ويرزقا بولد، واستطاع الحب أن ينمو بينهما، ويكبر شيئا فشيئا، فأصبحت "ليسلي" تعني الكثير لـ"قادر"، حتى أنها صارت مصدر سعادته، وهذا ما يؤكده في حديثه مع نفسه: " **أدرك أن ما مِن شيء في الدنيا يعني لي أكثر من ذلك الجسد الممدّد على السرير، في عمق الغرفة. جسد زوجتي المنهك**"[3]. إنه يشعر بالألم لمرض زوجته، وبالخوف من فقدانها، بل باليأس لرحيلها.

---

[1]- الرواية، ص 283.

[2]- الرواية، ص 283.

[3]- الرواية، ص 12.

**ب. <u>علاقة الآخر الأسود (تريدارير) بالأنا الأبيض</u> :**

- **<u>علاقة "تريدارير" بالبيض عامة وبالصيادين خاصة</u>** : هي علاقة ظلم وتعدٍ على الآخر الأسود، ويتجلى ذلك من خلال تلك المجازر الرهيبة، والجرائم النكراء التي ارتكبها البريطانيون في حق السكان الأصليين لجزيرة تسمانيا، ومنهم الطفل الصغير "تريدارير" الذي عان الكثير بسبب نفور البيض منه واحتقارهم له، ومعاملتهم اللاإنسانية تجاهه خاصة الصيادين الذين اعتبروه سلعة يتاجرون بها، فقد كان الكل ينبذه ويهينه فقط لعرقه الأسود، وهذا ما نلتمسه من خلال هذا المقطع: "**فلقد تعلم التعايش مع الإهانة الدائمة...**"[1]. فقد كان "تريدارير" مثالا للمنبوذ والمرفوض من طرف البيض، وهذا ما يتبين من خلال هذه العبارة: "**لم تكن تلكالمرة الأولى التي يُقابَل فيها الصبي الداكن البشرة بالرفض والازدرء**"[2]. لذا فإن علاقته بالبيض كانت علاقة كره وازدراء ورفض تام يفوق التصور، باستثناء علاقته بكل من "قادر" و"ليسلي"، ومن هنا ينبغي الإشارة إلى علاقتهما بـ"تريدارير":

- **<u>علاقة " تريدارير" بـ" ليسلي"</u>** : بالرغم من أن علاقة " تريدارير" بـ" ليسلي " كانت في البداية علاقة خوف وارتياب شديدين انتابا قلبه الصغير، لأنه كان يعي جيدا بأنه مرفوض من طرف البيض لذا ينبغي عليه توخي الحذر منها وهذا ما يتبين من خلال حديثها

---

[1] – الرواية، ص 471.

[2] – الرواية، ص 317.

مع "قادر": " **ليس بحالة جيدة. إنه لا يزال يختبئ خلف الصندوق، وهو مُرْتَعِب منا كثيرًا. منا جميعًا** "[1]. لكن هذه العلاقة سرعان ما تتحول إلى حب كبير وامتنان شديد نحوها، مدركا فيها لكل جمائلها الكثيرة عليه وهذا ما يؤكده قوله لها: "**لي، لقد اعتنيت بي... أويب ! لقد قبلتني أثناء نومي...أمي وحدها...أنت... هو... دافعتما عني أكثر من مرة...مرتين...ثلاث مرات...**"[2].

وبالمقابل كانت "ليسلي" تعامل "تريدارير" بكل رقة وحنان، تكن له مشاعر الحب والعطف والشفقة، ويتجلى ذلك في الرواية من خلال مسارعتها لعلاجه من الضربة التي تلقاها وهذا ما يبينه هذا المقطع: "**كان صوت المرأة ينضح بالضغينة، وكذلك بالكثير من الحزن؛فهي تتفحَّص العُقَد في القيد الذي أوثق به الصبي، قد تملكها الغيظ الشديد، لتعود إثر ذلك إلى معالجة الحبال الرفيعة بأسنانها**"[3]. كما أنها كانت تحبه حبا جما إذ صرحت لـ"قادر: "**إنني أحب تريد... وأنت؟**"[4]. كما أنها تود لو أنه يبادلها الحب أيضا، فقد كانت ترى فيه ابنة أخيها "كامي" المفقودة، وكانت تحرص عليه حرصا شديدا دليلا على عطفها عليه

---

[1] – الرواية، ص 243.

[2] – الرواية، ص 456.

[3] – الرواية، ص 232.

[4] – الرواية، ص 324.

متمتمة: " **أآلمتك يا صغيري؟ عذراً... لم أقصد... عذراً...**"[1]. باختصار لقد كانت "ليسلي" حنونة عليه كما تحن الأم على ولدها وتداعبه إذ تقول: " **تعال يا ذئبي الصغير؛ لدينا أشياء نتحدث بها. فيتقوم الطفل بخطوة، ثم بخطوة ثانية، فتشده ليسلي إليها، وتروح تداعب جمجمته الخشنة المضحكة**"[2]، وهكذا لم يكن لانعدام صلة الدم بينهما أن يكون عائقا أمام المحبة الكبيرة التي ربطتهما.

-**<u>علاقة "تريدارير" بـ"قادر"</u>** : هي علاقة امتنان واعتراف بالجميل أيضا، فبالرغم من صغر سن "تريدارير" إلا أنه كان يعي بأنه محتقر ومنبوذ من البيض، كما أنه كان يدرك إدراكا تاما دفاع "قادر" عنه، ولهذا نجده ممتنا له ولفضله عليه.

وبالمقابل كانت علاقة"قادر" بـ"تريدارير" علاقة لطافة وطيبة تبتعد كل البعد عن ازدراء البيض واحتقارهم له، إذ نجده في البداية يشعر بالألم والأسى تجاهه بسبب تلك المعاملة الشنيعة التي عومل بها، ولكن مع مرور الوقت تعوّد "قادر" على "تريدارير"، وأصبح كثير القلق عليه، وشديد الخوف من وقوع أي ضرر له، وهذا ما يظهر عندما يضيع الصغير في الغابة، فيحرص "قادر" على أن يجده قائلا لـ"ليسلي": "**سوف نجده، هذا التسماني. لا يمكن**

---

[1] – الرواية، ص 233.

[2] – الرواية، ص 313.

**أن يكون قد ذهب بعيداً"**[1]. وهكذا ينمو الحب في قلب "قادر" تجاه "تريدارير"،فصار يعامله معاملة الوالد لولده، إذ يقول "قادر": "**لعل ابن الشعب العتيق الذي يخُبُّ بجواده قربي، هو أجمل ما حصل لي في حياتي؛ ولكنه كذلك الأكثر إثارة للحيرة، بالتأكيد. فلقد أحببته– ولا زِلت أحبه– أكثر مما أحب ابني، وربما بقدر ما أحببت – ولا زلت أحب– ليسلي"**[2]. باختصار يمكن القول أن العلاقة بينهما أصبحت تقوم على الحب، التقدير والامتنان، إذ يقول "قادر": "**ثم أبحث بناظِريَّ عن تريدارير، رفيق دربيَ الدائم، ذلك الكائن البشري الذي كان، في وقت من الأوقات،علة وجودنا الوحيدة**"[3]، هذا لأن "تريدارير" كان الرابط الذي جمع كل من "قادر" و"ليسلي"، وبالتالي كان سبب العلاقة بينهما.

## سادسا / تجليات الصورة النمطية:

تتضح تلك الصور النمطية المقدمة عن الأنا والآخر في الرواية، من خلال ذلك الكم الهائل من الصفات السلبية المشوهة التي كوّنها الأنا الأبيض عن الآخر الأسود، وأيضا من

---

[1] – الرواية، ص 283.

[2] – الرواية، ص 469.

[3] – الرواية ص 11.

خلال تلك الشتائم المختلفة التي سعى فيها الغرب المسيحي إلى تقديم الشرق المسلم بأسوء الصور، ومن هنا فإن الصورة النمطية في الرواية تتجلى في تشويه الأسود وتشويه الإسلام:

أ. **تشويه الأسود** :

لقد عالجت رواية " ابن الشعب العتيق " قضية الاختلاف العرقي ( الأسود، الأبيض ) بشكل جلي، يتضح من خلال تلك الإبادة الجماعية الكاملة التي قام بها الصيادون من أجل القضاء على السكان الأصليين لجزيرة تسمانيا، وتصفية الجزيرة منهم لكونهم ينتمون إلى العرق الأسود، ومن هذا المنطلق ندرك إدراكا تاما بأن الإنسان الأبيض في هذه الرواية، لا ينفك يزدري الأسود ويعامله بوحشية تامة يصعب وصفها، فهو ينفر منه ويرفض وجوده رفضا قاطعا لأنه لا يعتبره أصلا كائنا بشريا يحق له بالوجود، إذ نجده يسعى دائما إلى تشويهه وتقديمه بأسوأ صورة، وقد تجلى هذا بشكل بارز من خلال مجموعة من الصفات التي كان يوصف بها الأسود من مثل "**هذا زنجي، الغلام القذر، رعاع الأرذال، الصغير الشديد السمرة، ابن أكلة لحوم البشر، التوالد والتكاثر مثل القمل، إنسان قذر، الأرانب السوداء، الزنوج الفاشلون، ليسوا من البشر، إنهم حيوانات، ابن الأوباش، أبناء الآبوس، السود الملاعين، أكلة التراب** ...". وقد ساهمت هذه الصفات في استيعاب تلك الصورة النمطية المقدمة عن الأسود من قبل الأبيض استيعابا لا يمكن لقارئ الرواية تجاهله أو التغاضي عنه.

**ب. <u>تشويه الإسلام</u> :**

لطالما كان الغرب يعتقد بأن الديانة المسيحية هي الأفضل والأَقْوَمُ بالمقارنة بغيرها، وهو بذلك يرفض رفضا تاما أية ديانة أخرى غيرها، وما بالك إذا كانت هذه الديانة معتنَقة من طرف أمّة تمثل الضعف والتخلف بالنسبة للغرب، وهذا ما نجده غالبا عند البلد المستعمِر، الذي يعتبر نفسه مثالا للتحضر والتمدّن أمام المستعمَر حتّى في ديانته المعتنَقة، فمثلا المستعمِر الفرنسي للجزائر كان دائما يسعى إلى القضاء على الثقافة العربية الإسلامية، ونشر الديانة المسيحية عن طريق إزالة المعالم الإسلامية، وتخريب كثير من المساجد، وتحويل كثير منها إلى كنائس بغية تنصير الجزائريين والقضاء على الدين الإسلامي، كما أن المستعمِر الفرنسي لم يغفل أبدا عن استغلال أيّة فرصة أتيحت له في سبيل تشويه صورة الإسلام والمسلمين بأي شكل من الأشكال.

وهكذا يبدو بأنّ العنصر الديني كان ولا يزال دائما أساس الاختلاف بين الأمم والحضارات والثقافات، وبما أن العقيدة التي تنتمي إليها الأنا في الرواية تختلف عن عقيدة الآخر، فإنّ هذا الاختلاف الدّيني الموجود في رواية "ابن الشعب العتيق" (مسيحي– مسلم)، طبعا – ومن دون شك – سيخلق تباينا بارزا بين الأنا والآخر، وهذا ما يبدو جليّا في الرواية من خلال تلك الصور السلبية المشوهة التي قدّمها المسيحي (الآخر) عن المسلم(الأنا) من مثل هذه العبارات: ("**وأنتم يا أتراب محمد، كيف ستفعلون للاهتداء إلى قبلة مكتكم...**"، "**هذا طبيعي، فإلـههم يخشى داء المفاصل وهو يفضّل الصحاري القديمة الكثيرة الجفاف**

**على ماء المحيطات"، "لو عاد الأمر لي، لما كنت اخترت محمديا ليكون رفيق قيدي ...")**. وبوجود هذه الصور يغدو الحديث عن الاختلاف الديني في الرواية بين الأنا والآخر أمرا مفروغا منه، لأنّ هذه الصور النّمطية التي كوّنها الآخر/ المسيحي عن الأنا/ المسلم، محاولا بها الإساءة إلى المسلمين وتشويه ديانتهم، تعدّ مثالا بارزا على تشويه الإسلام في الرواية.

**سابعا /دراسة الصورة :**

أ. **الفضاء المكاني في الرواية :**

لقد وردت الأحداث في رواية " ابن الشعب العتيق " ضمن فضاءات مختلفة أهمها:

**الفضاء المكاني للأنا:**

- **الجزائر:**

هي الفضاء الأول الذي يمثل الشرق المستعمَر (الأنا) بالنسبة للغرب المستعمِر(الآخر)، الذي احتل بلاد الجزائر، وشن عليها حربا شعواء يصعب على الفرد وصفها أو وصف الأساليب الشنيعة المستخدمة فيها، كما تمثل الجزائر، وبالتحديد مدينة بسكرة، الفضاء والموطن الذي ينتمي إليه بطل الرواية " قادر".

**-دمشق (عاصمة سوريا) :**

هي الفضاء الثاني الذي يمثل الشرق المستعمَر (الآخر)، بالنسبة للغرب المستعمِر (الأنا)، لأنها فضاء شرقي مسلم، فهي العاصمة التي انتقلت إليها عائلة " قادر" بحكم علاقة القرابة التي تجمع بينها وبين عائلة "الأمير عبد القادر"، كما كانت دمشق بابا مفتوحا في وجه " قادر"، استطاع من خلاله الحصول على العلم والمعرفة، والتعرف على " مدام أرماند " التي ساعدته على تعلم اللغة الفرنسية.

**- تسمانيا:**

هي جزيرة في أستراليا تمثل موطن السكان الأصليين الذين كانوا يعيشون حياة بائسة في الأدغال، يتعرضون للقتل والنهب والحرمان بسبب الاستعمار البريطاني الذي مارس في موطنهم أبشع أشكال الإبادة، وهي الفضاء المكاني الذي يمثل انتماء الآخر العرقي (الأسود) بالنسبة للأنا(الأبيض)، وبالتالي فهو يمثل انتماء " تريدارير" إلى هذا المكان، فهذه الأرض هي موطنه الأصلي، لأنه وعائلته كانوا آخر سكان تسمانيا الأصليين، وبهذا تكون تسمانيا فضاءً مكانيا جسّد، وبوضوح، الظاهرة الاستعمارية في امتداداتها العنصرية أو العرقية.

**الفضاء المكاني للآخر:**

- **فرنسا:**

هي المكان الذي يمثل فضاء الآخر الغربي الأوروبي بقوته الاستعمارية، ويتجلى ذلك من خلال الاستعمار الفرنسي للجزائر، كما أنها تمثل البلد الذي لجأت إليه كل من " ليسلي" وأخيها " بيار" بحثا عن ظروف أفضل للعيش بعد وفاة والديهما، وهذا ما يتبين من خلال هذا المقطع: " **ولم يكن الأب قد ترك لولديْه شيئاً يستعينان به على شظف العيش، مما اضطرَّهما إلى تدبّر أمرهما، إذ سرعان ما غادرا بلاد الألزاس*Alsace* قاصدين مدينة باريس** "[1]. إن الأمر الذي لا ينبغي تجاهله هو أن فرنسا، وإن كانت تمثل الفضاء الأوروبي المستعمِر، إلا أن هذا لا ينفي أنها شهدت هي الأخرى ظروفا سياسية قاسية. باختصار يمكن أن نقول بأن فرنسا تمثل الانتماء المكاني للآخر الأوروبي الذي كان يتعرض لحصار طويل من طرف الألمان، وهذا ما يتضح في هذه العبارة: "**كان اليأس قد أعياها، شأنها في ذلك شأن غيرها ممن ملوا الحصار الطويل الذي ضربه الألمان** "[2]. في الوقت نفسه الذي كانت تسعى فيه إلى الهيمنة والسيطرة على الجزائر.

---

[1] – الرواية، ص 73.

[2] – الرواية، ص 88.

- **كاليدونيا:**

هي مقاطعة تابعة لفرنسا تقع في الجنوب الشرقي للكرة الأرضية، وهي عبارة عن جزيرة نائية وبعيدة، كانت السلطات الفرنسية تنفي إليها أسراها وسجنائها، وبالتحديد إلى جزيرة "نو"، أين يتواجد سجن الأعمال الشاقة. لقد قامت الحكومة الفرنسية بنفي" قادر" إلى هناك بعد أن ألقي عليه القبض أثناء مشاركته في مقاومة "المقراني" ضد المستعمِر الفرنسي. كما تمثل "كاليدونيا" الفضاء المكاني الذي نفت إليه السلطات الفرنسية "ليسلي"، التي استقرت في سجن النساء (لاروشيل)، بتهمة إضرامها النار أثناء بحثها عن الطعام لابنة أخيها "كامي"، وبالتالي تكون "كاليدونيا" قد جسدت الفضاء المكاني للآخر بشكل بارز.

- **أستراليا:**

أو ما يسمى بالقارة الأسترالية، وهي تصغر باقي القارات الأخرى، وتنتمي إلى العالم الغربي، وهي في هذه الرواية تمثل الفضاء المكاني الذي اتجه إليه كل من "قادر" و"ليسلي" و"تريداري" للاستقرار في مدينة "أليسون" في الجنوب، وبهذا تكون أستراليا قد جسدت الفضاء المكاني الأخير في الرواية، الذي من خلاله استطاع الثلاثة التعايش معا بالرغم من الاختلافات التي تجمع بينهم.

**ب. <u>الشخصيات التاريخية المشار إليها في الرواية</u> :**

لا يشير الكاتب في هذه الرواية إلى أيّة شخصيات تاريخية تنتمي إلى عالم "الآخر"، في حين أنه يشير إلى شخصيتي "الأمير عبد القادر" و"المقراني"، اللتين تنتميان إلى عالم"الأنا"، لذا ينبغي الوقوف عندهما باعتبارهما شخصيتان تاريخيتان واقعيتان معروفتان تنتميان إلى فضاء "الأنا"الذي يمثّل الشرق المستعمَر في الرواية :

- **<u>شخصية الأمير عبد القادر</u> :**

هو زعيم المقاومة الشعبية المنظّمة في الغرب الجزائري / في بايلك الغرب، وقد امتدّت هذه المقاومة مدّة طويلة (1832 – 1847)، استطاع من خلالها الشعب الجزائري أن يعبّر عن ردّة فعله تجاه الاستعمار وسياسته إمّا عسكريا أو سياسيا، إذ تزعّم "الأمير عبد القادر" هذه المقاومة باسم الدولة الجزائرية، وبتنظيم سياسي وعسكري غير مألوفين، فخاض فيها الكثير من المعارك ضدّ المستعمِر الفرنسي، ساعيا فيها، وبكلّ جهده، إلى تأخير تقدّم الاستعمار في الجزائر ومنعه من استمرارية تنفيذ سياسته فيها، ولكنّه في نهاية المطاف انهزم، ونفي إلى فرنسا فدمشق حيث توفي فيها[1].

[1] – ينظر :http://ar.wikipedia.org/wiki/Aالأمير_عبد_القادر

- **شخصية " المقراني "** :

هو أحد قادة المقاومة الشعبية غير المنظمة التي تميّزت بتقطّع زمني وجغرافي، والتي قادها المقراني سنة 1871، وحاول فيها منع الغزو الفرنسي في للجزائر، وغرس روح المقاومة والدفاع في قلوب الجزائريّين، إلى أن انظمّ بعد مدّة إلى ثورة " الحدّاد " في منطقة القبائل، حتى استشهاده في بجاية[1].

**ج. صفات أسماء العلم ودلالتها** :

تجدر الإشارة هنا إلى المعنى الضمني لاسمي " قادر" و" تريدارير":

- " **قادر**" : هو المتحدي، المتمكن، المقتدر نسبة إلى دلالة الاسم الذي يعني صفة من صفات الله وهي القدرة، ولا شك أنّ اختيار الروائي لـ"قادر" اسمًا لبطل روايته ليست مجرّد صدفة، وإنّما هو اختيار مقصود من قبله، ليكون بذلك معبرا عن الشخصية التي تحمل هذا الاسم[2].

- "**تريدارير** " : هو الصامد، المقاوم، الشجاع والمرفوض حسب معنى اسمه في الرواية.

---

[1] - ينظر : http://ar.wikipedia.org/wiki/Aمحمد المقراني

[2] - ينظر : http://ar.wikipedia.org/wiki/Aمعنى اسم قادر

د. **دلالة الأماكن هنا وهناك** :

لقد اختلفت دلالات الأماكن التي وردت فيها أحداث هذه الرواية باختلاف تمثيلاتها سواء أكانت تمثل الأنا أو الآخر :

- **دلالة الأماكن الممثلة للـ"هنا" (الجزائر – دمشق)** :

- **الجزائر:** هي المكان الذي يدل على الـ"هنا" لأنه موطن الأنا، وبما أن قضية الاستعمار تربط بين الـ"هنا" و الـ"هناك"، فإن دلالة الجزائر في هذه الرواية هي المواجهة وعدم الرضوخ رغم كونها أرضا مستعمَرة، لذا فهي تعتبر رمزا للتحدي والمقاومة، وبالتالي فهي تدل على شجاعة شعب أتخمته المتاعب والمعاناة بسبب المستعمِر الذي سعى جاهدا لمصادرة وحرمان الجزائريين من أحقيتهم في هذه الأرض.

- **دمشق (عاصمة سوريا)** :

هي أحد الأمكنة التي تمثل الـ"هنا" في الرواية، لأنها تنتمي إلى الشرق، و بالتالي فهي تحمل ثقافة الشرق وتعتنق ديانته، مما يجعلها تنتمي إلى فضاء الأنا، كما أنها تمثل الموطن الذي يدل على العطاء والترحاب لأنه – في هذه الرواية– يمثل الأرض التي احتضنت عائلة "قادر" من جهة، واستقبلت عائلة "آل بيكار" التي لجأت إليها من جهة أخرى.

- **دلالة الأماكن الممثلة للـ"هناك" (فرنسا – استراليا كاليدونيا –تسمانيا) :**

- **فرنسا:**

هي المكان الأول الممثل للـ"هناك"، فهي الدولة الأوروبية المستعمِرة للجزائر (الأنا)، وهي تدل على الاستغلال، التّسلّط والسيطرة على البلاد المستعمَرة، فهي رمز للظلم والجحود والعدوانية تجاه أبرياء وضحايا الجزائر.

- **أستراليا:**

هي المكان الثاني الذي يدل على الـ"هناك"، وهي تشير إلى ذلك النبذ والاحتقار الذي يكنّه الأبيض للأسود من منظور عرقي بحت، بل وتشير أيضا إلى تلك السياسة اللاإنسانية المتمثلة في التمييز العنصري الدنيء التي يعتمده البيض في إطلاق أحكامهم على السود، لذا فهي ترمز إلى التعالي والازدراء والعنف الشديد المستخدَم مع الأسود وبالتالي رغبة الأبيض في تجاوزه والقضاء عليه.

-**كاليدونيا:**

هي أحد الأمكنة الممثلة للـ"هناك" في الرواية، فهي المقاطعة الفرنسية التي يتواجد فيها سجن الأعمال الشاقة الذي نفي "قادر" إليه، وهي بهذا تشير إلى عقر العذاب والمشقات التي

يفرضها الـ"هناك" الآخر على الـ"هنا" الأنا، ومن ثمّة فهي تدلّ على قساوة المعيشة على الأنا المستعمَر ومعاناته أيضا.

**-تسمانيا:**

هي الجزيرة المستعمَرة الممثلة للـ"هناك" في الرواية، وهي بهذه الصفة رمز للأرض المظلومة من طرف المستعمِر الأبيض، الذي يمارس فيها مختلف أشكال النهب والقتل والإبادة الجماعية الكاملة على الأسود، لتكون بذلك رمزا للمعاناة التي يعيش فيها الزنوج/السود.

# خاتمة

إن علم دراسة الصورة أو الصورولوجيا هو ذلك الموضوع الذي اتخذناه منطلقا في عملنا هذا، إذ أنه يدرس تلك الصور المقدمة عن الآخر في أدب ما، وهذا ما حاولنا القيام به من خلال بحثنا هذا؛ إذ سعينا إلى دراسة صورة الآخر وتبيان الخصائص التي جعلت منه آخرا.

ومن خلال هذا العمل توصلنا إلى استخلاص هذه النتائج:

- هناك من يطلق أحكاما سلبية على الآخرين دون التعرف عليهم، فيقدمون صورا سلبية ومشوهة عنهم.

- اعتماد الأنا في إطلاق أحكامها على الآخر على مواقفها تجاهه.

- أن الصورولوجيا تفيد في تعديل الصور المشوهة المقدمة عن الشعوب، وتساهم في تحقيق التواصل الإنساني بين الأمم.

- إدراك مختلف المستويات التي جعلت من الآخر آخرا بالنسبة للأنا سواء أكانت عرقية، دينية أو ثقافية أو غير ذلك، واتخاذها أساسا في التعامل بين الأمم.

- انتشار الصورة النمطية بين الشعوب لقلة الاتصال بينها، وعدم الرغبة في معرفة الآخر معرفة جيدة، مما يولد سوء الفهم والتوتر.

وأخيراَ بعد أن تقدمنا في هذا المجال الواسع ... نأمل أن ينال عملنا القبول، ويلقى الاستحسان، نسأل الله أن يسدد قصدنا، وينفعنا بما عملنا.

# قائمة المصادر والمراجع :

**القرآن الكريم**

**أولا / المصدر :**


بن مالك ( أنور )،ابن الشعب العتيق، تر: رلى ذبيان، ميديا مجمع هاشت الفرنسي في الجزائر، ط1، الجزائر، 2007.


**ثانيا / المراجع:**


1. ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم )، لسان اللسان – تهذيب لسان العرب، دار الكتب العلية، بيروت – لبنان، الجزء الثاني، ط1، 1993.
2. أفاية محمد نور الدين ، الغرب في المتخيل العربي، منشورات دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ط1، 1996.
3. الجابري ( محمد عبد )، الإسلام والغرب (الأنا والآخر)، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت 2009.
4. حمود ( ماجدة )، صورة الآخر في التراث العربي، منشورات الاختلاف، ط1، 2010.
5. حنا ( ميلاد )، قبول الآخر، فكر واقتناع وممارسة، دار الشروق القاهرة، ط1، 1998.

6. الخباز ( محمد )، صورة الآخر في شعر المتنبي – نقد ثقافي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2009.

7. عدد من المقارنين الفرنسيين، الوجيز في الأدب المقارن، إشراف بيار برونيل وإيف شيفريل، تر: غسان بديع السيد.

8. العودات ( حسين )، الآخر في الثقافة العربية – من القرن السادس حتى مطلع القرن العشرين، بيروت – لندن، ط1، 2010.

9. عيد (ثابت )، صورة الإسلام في التراث الغربي – دراسات ألمانية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، نوفمبر 1999.

10. كاربانتييه ( ريمون )، ت. نسيم نصر، معرفة الغير، منشورات عويدات، بيروت– باريس، ط3، 1984

11. مسلم( سامي )، صورة العرب في صحافة ألمانية الاتحادية، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة أطروحات الدكتوراه 8، ط2، بيروت، يونيو1986.

12. مكي ( الطاهر أحمد )، الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه، دار المعارف، ط1، 1987.

**ثالثا / المجلات :**

السيد ( غسان )، " صورة الغرب في الأدب العربي، رواية ( فياض) لخيري الذهبي نموذجا"، مجلّة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 24، ع 3-4، دمشق، 2008.

**رابعا / القواميس :**

الجر ( خليل )، المعجم العربي الحديث "لاروس"، مكتبة لاروس، 1973.

**خامسا / المواقع الالكترونية:**

http://ar.wikipedia.org/wiki/

# فهرس الموضوعات :


مقدمة.....أ

الفصل الأول :ضبط المفاهيم.....10

أولا/ مفهوم الصورة.....11

ثانيا/ مفهوم مصطلح الآخر.....12

ثالثا/ صورة الآخر .....15

رابعا/ الصورة النمطية.....24

خامسا/ الصورة الأدبية.....25

سادسا/ الصورولوجيا.....27

سابعا/ صورة الآخر في الوطن العربي.....28

ثامنا/ جدلية الأنا والآخر.....31

الفصل الثاني: تجليات الآخر في "ابن الشعب العتيق".....34

أولا/ملخّص الرواية.....35

ثانيا/أوجه ظهور الآخر في رواية "ابن الشعب العتيق".....39

أ – الوجه الأول.....39

ب – الوجه الثاني.....40

ثالثا/تمثيلات الآخر في رواية" ابن الشعب العتيق".....40

أ – قضية الاستعمار.....40

–الاحتلال الفرنسي للجزائر.....41

–الاحتلال البريطاني لجزيرة تسمانيا.....42

ب – قضية الصراع العرقي.....44

ج – ظاهرة التباين الديني.....45

د – استعباد السود وإبادتهم.....47

رابعا/دراسة أهم الشخصيات الممثلة للأنا و الآخر.....49

أ – شخصية " قادر".....49

ب–شخصية"تريدارير".....52

خامسا/ العلاقة بين الأنا والآخر.....53

أ –علاقة الأنا (قادر) بالآخر.....53

– علاقة "قادر" بالعسكريين.....53

–علاقة "قادر" بالمدنيين.....54

1.علاقة "قادر" بعائلة "آل بيكار" .....54

2. علاقة "قادر" بـ" ليسلي ".....56

ب – علاقة الآخر الأسود ( تريدارير) بالأنا الأبيض.....58

– علاقة "تريدارير" بالبيض عامة و بالصيادين خاصة.....58

– علاقة "تريدارير" بـ"ليسلي".....58

– علاقة "تريدارير" بـ"قادر".....60

سادسا/تجلياتالصورةالنمطية.....61

أ– تشويه الأسود.....62

ب – تشويه الإسلام.....63

سابعا/ دراسة الصورة .....64

أ – الفضاء المكاني.....64

- الفضاء المكاني للأنا.....64

- الجزائر.....64

- دمشق (عاصمة سوريا).....65

- تسمانيا.....65

- الفضاء المكاني للآخر.....66

- فرنسا.....66

- كاليدونيا.....67

- أستراليا.....67

ب - الشخصيات التاريخية المشار إليها في الرواية.....68

- شخصية الأمير عبد القادر.....68

- شخصية المقراني.....69

جـ- صفات أسماء العلم ودلالاتها.....69

- قادر.....69

- تريدارير.....69

د- دلالة الأماكن هنا و هناك.....70

– دلالة الأماكن الممثلة للـ"هنا".....70

– الجزائر.....70

– دمشق.....70

– دلالة الأماكن الممثلة للـ"هناك".....71

– فرنسا.....71

– أستراليا.....71

– كاليدونيا.....71

– تسمانيا.....72

خاتمة.....73

قائمة المصادر و المراجع.....76

فهرس الموضوعات.....79